مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية . المجلد ٦٩ . العدد ٩٥ .

شِعريَّة المُفارقة
فى شعرِ الأخطل التغلبى (٢٠ هـ : ٩٢ هـ)
دراسة أُسلوبية .

بحث مقدم من

الدكتورة / إيمان فؤاد بركات

أستاذ الأدب العربى المساعد
بكلية الآداب – جامعة دمنهور
والقائم بأعمال رئيس قسم اللغة العربية وآدابها

مِهـاد نظـرى :

تَكمنُ روعة الشعر فى تأمّله للأشياء بصورةٍ مختلفةٍ عن الفنون الأدبية الأخرى، صورة تستَّطعُ فيها الأشياء فى سحرٍ خاصٍ، وجاذبيةٍ متميِّزة، ذلك لأنه يعكس الحياة بكل جوانبها ودقائقها من خلال التعمُق فيها، وإخضاعها لظلال النفس الشاعرة، وتجربتها الخاصة، التى تتوحَّد بالأشياء، فتمنحها انعكاساً رحباً، متوحداً بالمشاعر.

إنَّه الفضاء الشعرىّ، المبتكر لكل ما تقع عليه عين الشاعر، فيرى ما حوله فى رؤيةٍ عميقةٍ، تتسع لكل شيءٍ: للأرض وجبالها وللسماء وزرقتها، وللحياة بكل أطيافها وألوانها المتنوعة، إنه إحساس الشاعر وعذوبة الشعر، الذى يرى الحياة فى صورها من وجهة نظره، ومن أعماقه الداخلية، وأحواله النفسية التى دائماً ما ترتبط بشيءٍ ما، ، يجسده الشاعر، ويصبح مأوى تجربته، ومصدر إلهامه.

وفى ظلال هذا الارتباط الحميمى بين الشاعر وبين صورة معينة تبرز فى شعره، ويكون لها الأثر البالغ فى تشكيل فكره، ودلالاته النفسية، نتوقف أمام شاعرٍ فذٍّ، من طراز الشعراء الفحُول، الذين أثروا الإبداع الشعرىّ ببصماتهم الخالدة، والتى لا تزال منبعاً عذباً للبحث والدراسة،

ومع مُعطيات التراث الشعرىّ، والبحث فى تراثنا الشعرى العظيم، نتوقف عند العصر الأُموى ، ذلك العصر الذى تميَّز حضارياً وثقافياً وسياسياً، بتعدد الأغراض الشعرية، وخاصة فن النقائض. فالمدح والهجاء والفخر، وأعلامه : جرير والفرزدق والأخطل.

وعند الأخطل التغلبى، يُحاول البحث تقديم رؤية جديدة فى شعره، تعتلى حالات التوافق والانسجام الداخلى عند الشاعر، عن طريق توظيف مجموعة من الطاقات التعبيرية فى خطابه الشعرى ،منحت أسلوبه قدرة شعرية متميّزة ،تتضح فيها أساليب التهكم والسخرية واضحة ،أو المُفارقة ، التى لم تتوقف عند أسلوب التهكم والسخرية فى شعر الأخطل فقط ؛بل امتدت إلى مفارقة أخرى على مستوى معظم قصائده الشعرية ، مفارقة بين المواقف والشخصيات ،والدهر .

اعتمد فيها الأخطل على علاقات التضمين بالقرآن الكريم ،على الرغم من نصرانيَّته. وهذا من أهم أهداف البحث : تتبع الأثر القرآنى فى شعره ،وارتباطه بموضوعاته الشعرية ،خاصة فى المدح والهجاء ، ومامنحه الأسلوب القرآنى للشاعر من خلق علاقات التضاد والتناقض بين الأشياء ،تتجاوز الظاهر إلى دلالاتٍ خاصة فى تشكيل النص عامة .

فلستعان الأخطل بأسلوب التهكم والسخرية ،والتضمين القرآنى ،لتظهر المفارقة فى شعره، تتكون من مجموعةٍ من الخصائص ،التى ربما لم تتوفر بصورتها الناضجة عند شاعرٍ آخر فى العصر الأموى مثل الأخطل التغلبى ،لما تحمله فى جوهرها من مفارقة على مستوى الذات ،لشاعرٍ مسيحىٍّ، تأثر بالقرآن الكريم ،و لما تحمله من دلالاتٍ تعبيريةٍ قوية ، تواترت فى شعره ، لتؤكد على وعيه الحاد بجوهر الأشياء، ووقعها فى نفس المتلقى، فبالخروج عن المألوف تظهر الأشياء فى صورةٍ أخرى ،ليست بالمألوفة ،لدى السامع ، وبالمقدرة الإبداعية تتكسب صور الشاعر أيضًا رؤية دلالية خاصة ،يُعبر بها عن تجربته مع حياته ،ومع واقعه ،ومع انسجامه مع هذا الواقع ،ومن هُنا تظهر الشعريَّة .

ولتتبع ظاهرة شعريَّة المُفارقة عند الأخطل التغلبى ، يعتمد البحث على المنهج الأُسلوبى، ومدى إمكانياته واستيعابه للجوانب الجمالية فى التوظيف الفنى على مستوى الأسلوب ، وفوائد الإنشاء

أو الاستبدالى ، والتى تُعد المفارقة جزء منه، لأنها تعتمد على لغة الابتكار والتجديد من خلال الخروج على معيارية اللغة فى الجملة ، لبناء هُوية أُسلوبية ،تعتلى لغة الشعريَّة ،وأثرها عند الأخطل .

وللوصول إلى ذلك يتبع البحث المحاور الآتية:-

أولاً : الشاعر: "عصرهُ وثقافته".

ثانياً : مفهوم المفارقة، واستقرار المصطلح .

المفارقة وعلاقاتها بالشعرية".

ثالثاً: أنواع المفارقة فى شعره .

ظهرت المفارقة عند الأخطل فى نوعين :النوع الأول المفارقة اللاشخصية ،والنوع الثانى مفارقة التنافُر البسيط .

ارتبطت المفارقة اللاشخصية ،ومفارقة التنافر البسيط ،ببعض المِيزات الأُسلوبية على مستوى التركيب الأسلوبى ،وأهمها :-

التشكيلات المتنوعة " للانزياح"، والتى جاءت مُتمثلة فى :

- الانزياح الدلالى لمفارقة الاستفهام المجازى،والانزياح التركيبى فى التقديم والتأخير للجار والجرور .

تشكلت ظاهرة المفارقة عند الأخطل التغلبى من هذه التقنيات الأُسلوبية التى منحت أسلوبه الشعرى لغة متميِّزة ،لها قدرة على التأثير فى المُخاطب ،إلى جانب ما حملته المُفارقة من حسٍّ فكرىٍّ ،يجمع بين التأمل والنقد ،والتهكم والسخرية فى الكثير من الأحيان ،لأنه كان دائم الدفاع عن الخلافة الأموية ،فشارك فى هذا المُعترك السياسى ،حتى أصبح شاعر البلاط الأول فى عهد الخليفة الأموى " عبد الملك بن مروان " ،لذلك بُنيت المفارقة فى مواقفها المتنوعة على الاستخفاف بمن يُناهض الخلافة .

فقام الشاعر بتجسيد مفارقاته من رؤيته للواقع ،وما به من متناقضاتٍ ،منحها حالة من التأمّل والوعى الحاد منه بالارتباط بالواقع ،والانسجام معه ،فاعتمد على التضمين من القرآن الكريم ، ليعطيها مرجعية قوية.

وقبل الوقوف عند المفارقة وأنواعها ،وما حملته هذه الأنواع من ميزاتٍ أسلوبية ،أبرزت رؤيته ،وأثرها على المستمع. نتوقف عند الشاعر وعصره أولاً.

أولاً : الشاعر "عصره ، وثقافته":

غِياث بُنُ غَوثِ بنِ الصَّلتِ بن ِطارقةَ بنِ مالكِ بنِ تغلبَ بنِ وائلٍ، والأخطل "لقبٌ"، من شعراء العصر الإسلامى – كما وصفه ابن سلام الجمحى فى طبقات فحول الشعراء، "ولد الأخطل فى بادية الحيرة، حوالى سنة ٢٠ للهجرة، وكانت أمه مثل أبيه نصرانيَّة، ومن ثمَ نشأ نصرانياً،

وظل على دينه، فلم يدخل الإسلام، وكان يكثر من هجاء الناس، لذلك لقبوه "الأخطل السفيه".[١]

قال عنه جرير، عندما سُئل عن نفسه، وعن الأخطل، والفرزدق ، فقال: "أنا مدينةُ الشِّعر، وفى يدِ الفرزدق نَبْعَةُ، ووالله ما أخرجَ ابنُ النصرانيِّةِ ما فى صدرِه من الشِّعر حتى مات".[٢]

كان نصرانىُّ الديانة ، ذكره الأب لويس شيخو من شعراء النصرانية فى الدولة الأموية : ومنهم:"هُدبة بن الخشرم ، موسى بن جابر ، سمعلة التغلبى ، مرقس الطائى ، الأخطل التغلبى".[٣] ، والأخطل صاحب رؤية واعية لعصره ،لهذا فقد حاول التقرُّب من أهل السلطان فى ذلك الوقت عن طريق قدراته الشعريِّة ،فالتحم بالثقافة الإسلامية ،وعبر شعره فى الظاهر عن هويةٍ إسلاميةٍ ، وهنا تكمن المفارقة وإشكالية البحث – حول استيعاب شعره ثقافة عصره الإسلامية – ومدى تشربه إياها على مستوى الأداة الفنية فى شعره، وعلى مستوى الدلالة الفكرية والنفسية.

وعلى الرغم من نصرانيته، إلا أنه استعان بالقرآن الكريم، وتناص معه فى مواضع كبيرة جداً فى معظم أغراضه الشعرية، كذلك استيعابه للفرائض الإسلامية، فهل يرجع ذلك إلى أسبابٍ سياسية، على اعتباره شاعر البلاط، أو الشاعر الرسمى فى خلافة عبد الملك بن مروان؟، فقد كان شاعره، ونديمه، ولسان حاله. بالإضافة إلى هذا كله فقد يكون متأثرًا بروح العصر ،وخاصة المرجعية الإسلامية الأولى فى الخلافة الأموية : القرآن الكريم ، وسيتضح فى شعره هذا الأثر القرآنى ،وحالات التجاوب والانسجام معه.

وتقف إشكالية البحث عند ظاهرة المفارقة من خلال جوانبها البارزة فى شعره ،وخاصة أسلوبه فى التهكم والسخرية ،واعتمادة على التضمين القرآنى أيضًا،من أجل ارضاء الخالفاء ،وهنا يتساءل الباحث :فى كيف يُصبح الأدب محاكاة للمجتمع ،أو أدب الأمر الواقع؟ ،" كنتيجةٍ منطقيةٍ للواقع السياسى والتنظير التاريخى والاجتماعى ،الذى قد يُعنى فيه الأدب بالمصالح الشخصية ،وصعود النزعة الفردية ،والطموح الفردى ،ومن هذا الإحساس تُصاغ خصوصية الكتابة الأدبية ،لنوعٍ من الأدب ،يُسمى أدب الأمر الواقع."[٤]. فيظهر فيه مُحاكاة الظواهر والأحداث الواقعية بصورةٍ بارزةٍ ، وما تحمله من أهدافٍ سياسيةٍ ، وفردية.

فنحاول إبراز هذا الجانب فى شعر الأخطل ،وكيف عبّر شعره عن واقعه بصورةٍ واضحة ،تُظهرها سُلطة المفارقة اللاشخصية ،أو المفارقة الموضوعية ،ومحاكاتها لأحداث العصر ،وأهم الشخصيات المُفضلة فى مدحه ،وفخره ،وكيف قدم النص الشعرى لمُفارقة الأخطل ،وانشغاله بالأثر القرآنى ،وحركته فى تجسيد أمور الحياة ،والتأكيد على تعاطى الشاعر مع ثقافة عصره على الرغم من نصرانيّته ؟

وكيف انسجم شاعر نصرانىٍّ مع التوظيف الإسلامى، وهل يمكن أن يكون هذا الأثر تأكيدًا لأدب الأمر الواقع ؟ وتمثيلاً دلاليًا بارزاً على مفارقته الخفيّة على المستوى الدلالى العام فى

---

١ ـ تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى) ، شوقى ضيف، ط. الثامنة عشرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٧ : ٢٦٤.

٢ ـ شعر الأخطل التغلبى وأبى مالك غيثان بن غوث التغلبى، صنعة السُكرى روايته عن : أبى جعفر محمد بن حبيب، تحقيق : فخر الدين قباوة، ط دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٦م ، ص ١١.

٣ ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام (القسم الثانى) شعراء الدولة الأموية ، الأب لويس شيخو اليسوعى ، ط. دار المشرق، بيروت ، ١٩٦٨م.

٤ ــ مدخل إلى مَناهج النقد الأدبى . تأليف :مجموعة من الكُتاب .ترجمة : د .رضوان ظاظا ،مراجعة : د.المنصف الشنوفى .ط: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت .١٤١٧هـ ١٩٩٧م ١٧٧.

شعره ، لأنه شاير ظروف عصره من أجل الجدية والاستجداء ،فاستعان بالنص القرآنى ، كمرجعيةٍ أساسيةٍ فى الخلافة الأموية ، زاد أثرها وقوىّ ،مع ظهور الفرق الكلامية بعد ذلك ،ولأن الأخطل يُدرك أهمية القرآن الكريم فى مخاطبته للعقول ،وأثره الفكرى والنفسى ،فقد جعله سمة أساسية ،أكثر حضورًا وتواجدًا عنده ،مما أدى إلى التأكيد على "إسلامية النص الشعرى" عند الأخطل.

من هنا تطرح شعرية المفارقة هذا التساؤل فى شعر الأخطل التغلبى،أى كيف مثَّل شعره لأدب الأمر الواقع ،من خلال ظاهرة " المُفارقة "؟ على مستوى الموقف :لشاعرٍ نصرانىّ ،تناص مع القرآن الكريم ،وهى المفارقة الخفيَّة ،وعلى مستوى الأداة الفنية فى مجموعة التقنيات الأسلوبية التى استعان بها الأخطل .

ومن هذه الافتراضات ،تبرز أهمية الموضوع ،وسبب اختيار هذا الشاعر بصفةٍ خاصةٍ .

المميزات الأدبية للعصر الأُموى .

تطورت أغراض الشعر فى العصر الأموى على وجه التحديد تطوراً ملحوظاً، بسبب الأحداث السياسية، والصراع على الخلافة، فبرز الهجاء كأحد أهم روافد النقائض ،مختلفاً عن الهجاء فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام، لأنه جاء مرتبطًا بالأحزاب والصراعات السياسية على الحُكم ،فجاء ليدافع عن بيت الخلافة ، وكان الشعر هو أهم هذه الوسائل التى تابعت حركة التطورات فى الحياة العربية فى العصر الإسلامى، فتنوعت أغراض الفخر والمدح ،وهما من أهم الموضوعات الشعرية فى العصر الإسلامى دفاعًا عن الخلافة الأموية ،لذلك جاء الشعر متشربًا أفانين القول المُبهِر ،ليثير إعجاب أهل عصره ،فخاطب ذائقتهم الدينية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ،فاعتمد الشعراء على التضمين من القرآن الكريم فى طرق أدائهم ، وأساليبهم الفنية فى التعبير.

فجاء الشعر فى العصر الأُموى مختلفًا عما كان عليه سابقًا ،"فقد كان الشاعر الجاهلى مادى ، لا يهتم بالروحانيات، لذلك لم يتعمق فى التعبير عن تأثراته النفسية بطريقةٍ عميقةٍ بسبب ارتباطه بالماديات، وبعد ظهور الإسلام تطورت الحياة بتأثير القرآن الكريم، وقوىَّ الإحساس به فى النفوس.[١]

وظهر أثر الإسلام فى جميع نواحى الحياة، وخاصة فى فن الشعر، "فأثر الإسلام فى الشعر وفى أغراضه، كذلك ظهرت ملامح الشخصية الجديدة للشعراء، فبعد التغنى بالحروب والغزوات، والعصبية، ومفاخر القبيلة، كان التغنى بظهور الدعوة الإسلامية، والجهاد من أجلها"[٢].

أحدث الإسلام هذا التغيُّر الملحوظ فى كل الجوانب الحياتية والفنية ، فكان ثورة فكرية عظيمة، استمر أثرها فى فن الشعّر بصفةٍ خاصةٍ، " فكان الإسلام ثورة فكرية، عصفت بكل مظاهر التخلف القبلى والدينى، والانقسام والظلم الاجتماعى، وكان من الطبيعى أن يصاحب هذه الثورة بعض عوامل الدفاع عن القيم الإسلامية، فارتبط الهجاء فى بدايات العصر الإسلامى بالدفاع والذود عن أعداء الرسول ρ، فكان الهجاء الدينى، الذى تحوّل فى العصر الأموى إلى الهجاء السياسى، وما اشتهر به من حدَّةٍ ، وقوة فى أسلوبه فى وصف الصراعات الكثيرة فى العصر الأموى، فاهتم

١ - أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستانى، ط. السادسة، بيروت، ص ٣٤١.
٢ - ليلى والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى، دراسات نقدية ومقارنة فى الحب العذرى. محمد غنيمى هلال ، ط. الأنجلو المصرية ١٩٥٤، ص ٦.

مجموعة من الشعراء بهذا اللون الشعرىُ ،وكان منهم :الأخطل ، والسرّ فى عبقرية الأخطل يرجع إلى حدَّة هجاءُه."[١]

وقد ارتبط فن الهجاء فى العصر الإسلامى بمجموعةٍ من الشعراء هم : جرير والفرزدق ، والأخطل ،وكان الهجاء ،أو فن النقائض، يقوم على ذكر الصراعات الكثيرة فى العصر الأموى، والدفاع عن الخلفاء، بهجاء أعدائهم، فذكروا أسماء الأعداء بطرقٍ واضحةٍ فى نقائضهم، "فاعتمد الهجاء فى العصر الأموى على تكرار أسماء من يهجوهم، ويسخرون منهم، والشاعر أحياناً يسير على طريقة الجاهليين فى وصف المحبوبة، ثم ينتهى إلى مدح الأمويين ووصفهم بالتقوى والعدالة، وبانتمائهم إلى قريش، مؤكداً أحقهم فى الخلافة، لأنهم قرشيُّون، وأولياء دم عثمان بن عفان".[٢]

وفى هذه الصراعات السياسية، استطاع الأخطل أن يشقَّ طريقه، وأن يسعى جاهداً للتقرُّب من البلاط الخلافى، وكذلك حاول أن يستوعب كل الظواهر السياسية والثقافية فى شعره، فكشف عن الضرورات الجديدة التى صاحبت التغيُّر فى شعره، وكان منها حبه لبنى أُمية ،فنهض الأخطل مع زملائه جرير والفرزدق بالتجديد فى المديح والتجديد فى الحياة الشعرية فى العصر الأموى، فدفعوه إلى فن النقائض"[٣].

يتضح من الجوانب التاريخية السابقة لتطور الشعر منذ عصر صدر الإسلام إلى عصور الخلافة الأموية ،أو فترة العصر الإسلامى ،تطور الشعر وأغراضه، وقد تأثر الشعراء بهذا التطور والتجديد، ومنهم شاعرنا "الأخطل التغلبى"، الذى شعر بهذه الأحداث السياسية، فأخذ يتحدث عنها، ويتحدث عن الانتصارات والفتوحات لبنى أمية، فجاد شعره بنماذج من شعر الفتوحات الإسلامية، فأطلَّ علينا فى العصر الأموى حاملاً رايات الجهاد والدفاع عن كيان الدولة، والخلافة ،فوظف الشعراء كلماتهم القوية، التى لم تفارق هذه الأحداث، ليتصل الشعر بكل ما نظمته الخلافة الأموية، فى معتقداتها، وأعرافها الاجتماعية، وملامحها الحضارية، وما ابتدعه الأمويُّون فى البناء والتجديد، والتشييد للدولة الإسلامية فى ذلك الوقت.

وجاء "الأخطل" بشعره، ليُقلسم الأحداث والتطورات بلونه المتميّز ، وحسِّه الشديد فى توظيف ما يُشير إلى الانتماء للأمويين . فاتخذ شعره رؤية فكرية كاشفة عن محاولات تقرُّبه من الخلفاء ،طلباً للاستجداء ،وكذلك طلبًا للأمن على اعتباره نصرانيًا ، فنهض شعره على التضمين من القرآن الكريم ،وتأثره بالإسلام، وارتباطه به، ونظرته إلى الأمور الدنيوية من خلال المعتقدات الإسلامية ،التى وظفها فى شعره ،مُعلناً تأثره بالعقيدة الإسلامية ،كأهم محفزاته الفكرية والنفسية والفنية فى معظم أغراضه الشعرية ،التى تبنت رؤية الأحداث والمواقف معتمدة على التضمين من القرآن الكريم .

أظهره الأخطل فى شعره ،ليصور من خلاله عكس ما يتوقعه المستمع من شاعرٍ نصرانىّ ،فكان هذا الذكاء الشديد ، ،بالاعتماد على ظاهرٍ مُعلنٍ فى شعره ،يؤكد العلاقة الوطيدة بين الشعر والدين ،وخاصة فى العصر الأُموى ،الذى أصبح للخطابة شأنها فى الدعوة إلى الخلافة الأُموية .

---

١ ـ اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى. قحطان رشيد التميمى، ط. دار المسيرة ، بيروت، ص ٢١.
٢ ـ فى الشعر الإسلامى والأموى، عبد القادر القط ، دار المعارف، (د. ت)، ص ٧٢٧.
٣ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى، شوقى ضيف، دار المعارف، ط. الحادية عشرة، ٢٠٠٧م ، ص ٣٢٩.

ومن المعروف ارتباطها بالجانب الدينى ،ولعل التضمين من القرآن الكريم ،كان أهم مميزاتها ؛بل أهم مميزات النثر والشعر فى ذلك الوقت ،ومن الخصائص الأدبية للشعر فى العصر الأموى اعتماده ـ فى بعض الأحيان ـ على التناص مع القرآن الكريم .لتتوثق علاقة الشعر بالدين والتى لم تكُن وليدة العصر الأموى .

فقد ارتبط الشعر بالفكرة الدينية ،ودورها فى تقييم الأخلاق ،والدعوة إلى التمسك بالقيِّم الخُلقية .

علاقة الشعر بالدين .

يرتبط تاريخ الشعر منذ بداياته الأولى، بمكونٍ جوهرى، جرى على ألسنة الشعراء فى الأناشيد الدينية والأساطير والملاحم، وهو الارتباط ، بالدين. فيقول أولريكى فى كلامه عن شكسبير:" الأصل فى الشعر والدين واحد. وفى هذا دلالة ارتباطهما، بغايات الحياة، التى عبر عنها الشعر وغايات الدين فى السمو والارتقاء بها. وهذا ما أُطلق عليه الفكرة الدينية.[١]

والفكرة الدينية وليدة كل العصور، وتطورت حسب غايات العصر ورؤى الشاعر فى توظيف المعانى الدينية، لإدراك فكرة معينة، ولم تتمحور الفكرة الدينية حول دينٍ معين مسيحى أو إسلامى، أو غيره، وإنما تُعنى بمسحة الصبغة الدينية، التى هى قاعدة الأخلاق والمؤثرات الحقيقية. والتى لا ينكرها أحد. فتدفع الشعراء إلى تدبرها والنهوض على غاياتها.

ومنذ القدم فى العصور الأولى لظهور الشعر وارتباطه بالملاحم والأساطير، والشعر قد ظهر مرتبطاً بالصبغة الدينية، التى تواصلت مع عصور التاريخ والأدب ،فظهرت فى العصر الجاهلى فى طقوس الحلف، والهدى وغيرها، مشيرة إلى الخوف والرهبة، وتقديس الأديان، ثم جاءت من العصر الإسلامى مرتبطة بالسمو والرقى الأخلاقى، وتوالت على مرِّ العصور الأخرى معبرة عن تلك النقطة فى الأخلاق ، ومنهجيتها فى الحياة، فطريق الفكرة الدينية، هو القاعدة الأساسية للنهوض بالغايات المتنوعة: سياسية، وأخلاقية، واجتماعية.

ولعل علاقة الأخطل بعصره ،وحداثه السياسية ،وكثرة الترغيب فى الدفاع عن الخلافة الأُموية ،وسلطانها ،هو ما جعله يربُط معظم موضوعاته الشعرية بالتضمين من القرآن الكريم ،وتظهر معانى شعره معتمدة على المرجعية الإسلامية "ففى عهد الأُمويين (٦٦١هـ : ٧٤٩ هـ) استفحلت النزاعات على الحُكم ، ومضى الجميع يُساير هذه الأُمور فى النثر والشعر ،معتمدين على أساليب الترهيب والترغيب ،وكبح جماح المتمردين ،فاتخذ الكلام إيقاع المدح والفخر بصفات الإمام العادل ، متأثراً بالقرآن الكريم فى ذلك." [٢]، وعلى هذا تأثر الأخطل بالدين الإسلامى ، فاتجه ،مستعينًا بالأثر القرآنى ، أو توظيف "الفكرة الدينية" فى شعره، لدورها فى بثِّ القيم الاجتماعية والأخلاقية، إلى الجانب السياسى فى مدح الخلفاء.

فقد أخذ من المعانى القرآنية مجموعة من المعانى التى ترتبط بفكرةٍ مُعينة ،يبثها الأخطل فى شعره ،مثل الشيّب ،فتتبع هذا الرابط بين الفكرة التى يُقدمها وبين مرجعيتها فى القرآن الكريم ،كذلك تتبع بعض قصص الأنبياء ليربطها بمواقفه ،وشخصياته .عن طريق التناقض أحياناً ،أوعن طريق أسلوبه الساخر أحياناً أُخرى .

ومن هنا ظهرت المفارقة: لونًا متميزًا ،ومتنوعًا فى شعر الأخطل ؛لأنها اتخذت من تجارب الحياة والصراعات المختلفة التى شارك فيها الشاعر رؤية فكرية تتعمق فى الحسِّ الشعرى عند

---

١ ـ الشعر غاياته ووسائطه. إبراهيم عبد القادر المازنى، ط. الناشر للترجمة والنشر، القاهرة، (د.ت) ، ص ١٢.

٢ ـ الأساليب الأدبية في النثر العربى القديم " من عصر علىّ بن أبى طالب إلى عصر ابن خُلدون .إعداد وتصنيف :كمال اليازجى .ط: الأولى دار الجبل ـ لبنان ١٩٨٦م .ص: ٣٨

الشاعر ،وتعطى له بعدًا دلاليًا ،يكشف عنْ علاقات التضاد ،وانعكاسها على الشاعر ،والمتلقى أيضًا .

مفهوم المفارقة:" واستقرار المُصطلح".

جاءت الكلمة تحمل فى جذرها اللُغوى معانى الخلاف، "فهى اسم مفعول من (فارق) وجذرها الثلاثى (فرق) ، ومصدرها (فَرْق) والفرق: خلاف الجمع ، فرقته ، يُفرقه ، وفارق مُفارقة، وهى المغايرة"[١]

ومن حيث هذا المفهوم اللغوى للمفارقة ، لا يبتعد معناها الاصطلاحى عنه، وعن ما تناوله النقاد حول المفهوم، فالمفارقة تنطلق من التنوع والاختلاف اللغوى والتصويرى فى الكلام، على اعتبارها بنية تعبيرية وتصويرية فى النص الإبداعى ،بمختلف أنواعه ،يوظفها المبدع فى لغته كأسلوبٍ له إيقاعه فى نفس المُتلقى ،لأنه يُعمق الفكرة ويُثرى الإحساس بها، بواسطة مجموعة من الانزياحات الأسلوبية ،التى تُعد المفارقة جزءً منها ، وكذلك وقدرة المبدع على استثمار هذه التقنية الأسلوبية ،وما تحمله من روى دلالية فى السياق .

وأما عن مستواها الأدبى، والنقدى فأهم مميزاتها : أنها توجهٌ خاص من المبدع، يحمل منطوقها فى الظاهر عناصر المخالفة، لكنه يذهب فى تجلياتٍ أخرى على مستوى السياق العام، قد تكون نفسية أو فكرية، من خلال خلق حالة من التفاعل بين المتناقضات، على مستوى الموقف. فتسمى المفارقة التى تراعى الموقف والأحداث ،وتوظف فيها وحدات لفظية :كالطباق بين الألفاظ، أو مقابلات بين الجمل، لكنها تطورت فى رؤيتها المحددة، إلى تفاعلٍ عام على مستوى الموقف الشعرى. أو السياق الدلالى، "على اعتبارها أحد أشكال القول الأدبى، الذى يُساق فى النص، فيخرج من ظاهرة المخالفة إلى ما تحمله دلالياً، فيدل اللفظ على شيءٍ والصورة أيضاً. يوظفها الشاعر من أجل غايةٍ محددة، لا يقصد بها المخالفة، وإنما التعبير عن شيءٍ آخر، هو حالة الانسجام الداخلى عند الشاعر من هذه المفارقة."[٢]

تقف هذه المعانى وراء منبع شعرية المفارقة عند الأخطل، والذى سنحاول إبرازه من مجموعةِ الأبيات الشعرية المختلفة الأغراض الشعرية، والتى استعان فيها الشاعر ببعض التوظيفات الأسلوبية ،كان أهما انتشارًا : الاستفهام المجازى ،والانزياح الدلالى والتركيبى ،وما لهما من قدرةٍ أسلوبية على التأثير فى المستمع ،إلى جانب استعانته بالمعانى القرآنية التى تناص معها فى معظم قصائده الشعرية ،ليؤكد ارتباطه وتناغمه مع واقعه .

فظهرت لغة الأثر الإسلامى أو الفكرة الدينية فى كل مفارقاته اللاشخصية ،مفارقة التنافر البسيط ،وما حملاه من وظائف أسلوبية أفادت المعنى الدلالى .

المفارقة وعلاقتها بالشعريَّة.

تطرح المفارقة هذا الجانب الخاص فى شعر الأخطل التغلبى على مستوى القصيدة، وما تحمله من دلالاتٍ فكريةٍ ونفسيةٍ، ارتبطت بالقرآن الكريم، على الرغم من نصرانيته، "فتتبدى المفارقة فى مظاهر شتى تتصل بالوجود والمجتمع ،ومن ثَمَّ تعكس صورها فى الأدب، فى أوجه التناقض والتضاد فى علائق وعناصر وأطراف، يجب أن تكون متوافقة، كذلك فيما يظهر لنا عكس حقيقتهُ، حيث نرى العبث والجد، الدهشة، فتقوم المفارقة على أن ما يُسلم به ونقبله هو أحياناً ما لا يجب أن نسلم به من وجهة نظر موضوعية"[٣].

---

١ ـ لسان العرب . ابن منظور، ط. دار صادر ، بيروت ، (د. ت)، مادة (فرق)، ص ٧١١.

٢ ـ المفارقة فى النص العربى المعاصر. سيزا قاسم، مجلة فصول، المجلد الثانى، العدد الثانى ، يناير – مارس، ١٩٨٢م، ص ٢٧.

٣ ـ المفارقة فى شعر عدّى بن زيد، حسن عبد الجليل يوسف، ط. الأولى ، الدار الثقافية للنشر، مصر ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م ، ص ٣.

فتكشف المفارقة البعد الداخلى عند الشاعر، ومدى درايته بأبعاد الحياة والواقع، وتمنح القارئ، فرصة البحث عن جماليات المفارقة، فى شعر الأخطل التغلبى، وما تميَّز به من تضادٍ وتناقضٍ فى معالجة موضوعاته الشعريَّة، فيحمل شعره من ظواهر التناقض على مستوى الموقف الفنى فى القصيدة، فنراه، يجمع بين الشباب والشيّب، ثم يُخرج المتلقى من هذه المفارقة الموقفية إلى الكشف عن الوعى الداخلى عند الشاعرفى ارتباطه بالقرآن الكريم،، وأثره على فكره، وخاصة أنه شاعر نصرانىّ، اعتمد فى مفارقاته على التناص مع القرآن الكريم على مستوى الموقف الفنى للقصيدة، وأغراضها، وعلى مستوى الدلالة الفكرية .وهذا هو سؤال القارئ للنص الشعرى عند الأخطل، كيف يكون شاعراً نصرانياً، ويتشرب معانى القرآن الكريم بهذه الطريقة؟ وهل يمكن القارئ بعد قراءة شعره وإبراز جوانب المفارقة وأبعادها الفكرية والنفسية عند الأخطل، أن يجيب على السؤال السابق؟ فنؤكد على أدب الأمر الواقع من خلال :إسلامية النص الشعرى عند الأخطل، وارتباطه بتوظيف الفكرة الدينية .

"إن فكرة السؤال الذى يجيب عنه العمل، تكمن فى فهمنا للسؤال، فكل قراءة للعمل الأدبى عبارة عن سؤالٍ وجواب مع هذا العمل. وهذا إما يمنع ظهور فكرة العمل (المثال) الذى يتم القياس عليه لمعرفة أكثر الأعمال الأدبية جودة، فتأتى أسئلة القارئ للنص، التى يمكنه الإجابة عليها من خلال الإشارات التى يستخلصها القارئ للنص، لمعرفة الأثر الناتج من قراءة العمل الأدبى.[١]

وللإجابة على تلك التساؤلات السابقة، كان لابد لنا أن نقف أمام "المفارقة" وعلاقتها بالشعريّة عند الأخطل.

تتحرك المفارقة فى شعر الأخطل التغلبى من خلال هواجسه الواضحة فى معظم قصائده، والتى تشِى بتعلقه البارز بالثقافة الإسلامية، كمبدأ من مبادىء الانسجام، فظل متأثراً بالقرآن الكريم، كمحركٍ دلالىٍّ، ومرجعية إسلامية فى شعره، وكشاهدٍ أيضاً على تلك الفترة التاريخية وحراكها السياسى والدينى.

فتناول الشاعر أمور الخلافة، ووثق كلامه من الشاهد القرآنى، الذى بدا ليس مجرد استشهاد أو تناص، وإنما يشير إلى مفارقة موقفية فى كثيرٍ من الأحيان بين عقيدته وثقافته وهويته، فيرى فى المفارقة جوهر الحياة والواقع فى العصر الأموى، وقدرة الشاعر على إدراك تعانق الوجود، وما ينطوى عليه من متناقضات كثيرة، وهى بذلك تحتوى كل ما يخصَّ الحياة والوجود فى ذلك الوقت، فى رؤى مختلفة، تتجاوز البعد الواحد فى إدراك جوهر الأشياء، وحقيقة الوجود الكائن، إلى الرؤية المزدوجة، التى تجمع بين الشيئين المتضادين، لتؤكد من خلالهما جوهر الأشياء. وهذا ما سنراه فى شعر الأخطل التغلبى، وكيف جاءت المفارقة فى شعره، تنطوى على درايته لأبعاد الواقع والوجود الإنسانى، لذلك، تبدو المفارقة غير تقليدية، أو مجرد مقابلات بين الجمل، وطباق بين الألفاظ؛ وإنما هى روح عميقة أثيرة الثقافة الإسلامية، وخاصة القرآن الكريم، وتلك الحالة من الانسجام والارتباط به والتوافق: أسلس الشعرية عند الشاعر، فى توظيف المفارقة بنوعيها : الاستفهام المجازى، والمفارقات اللاشخصية ، ومفارقة التنافر البسيط ،ومدى التآلف والانسجام معهما "وهى جوهر الشعرية ومضمونها، لأنها تتسع فى

١ ـ نظرية اللغة الأدبية. خوسية ماربوثويلويلو إيفانكوس ، ترجمة : حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية ، العدد ٢ ، ط. مكتبة غريب ، القاهرة ، الأولى، ١٩٩٢، ص ١٣٥:١٣٠.

مفهومها لتشمل جميع مكونات العمل الأدبى، وتتجاوز الظاهر اللغوى إلى سبر أغوار ما هو خفى ضمنى"[١].

فتستمد "الشعرية" خصائصها من البنى الضمنية فى النص الشعرى، أو قراءة ما وراء السياق الظاهر، "لأن الخطاب لا يتأسس جوهرياً على ما يُقال من وقائع وأحداث، ولكن يتأسس فعلياً على ما يثير جمالياً، من مجموعة الخطابات التى ينتجها المبدع"[٢].

تكمن الشعرية بمفاهيمها التى تشير إلى دلالة واحدة ،هى قراءة ما وراء النص، والبحث فى جوهر التوظيف، وهذا التنسيق الذى يشعر به قارئ النص، فيرى خطاباً آخراً، يحمل ضمنياً دلالات نفسية وفكرية عميقة، تشير إلى التكوينات النفسية عند الشاعر، أو المبدع بصفةٍ عامة.

"لأن التقييم الجمالى للنص الشعرى، يُفسر ماهيته الداخلية، "فسرّ الشعريّة ،هو أن تظل دائماً كلاماً، ضد الكلام، لكى نقدر أن نسمى العالم وأشياءه بأسماءٍ جديدة".[٣]

ونستطيع أن نؤكد بداية التوافق التام بين الشعرية والمفارقة، بحكم منطلقاتهما الفكرية، لأن المفارقة فى شعر الأخطل بصفةٍ خاصةٍ، ظلت متجاوبة مع قناعاته الذاتية ورؤيته الفكرية، فى بلورة مواقف متنوعة فى الهجاء والمدح والفخر، وخاصة الهجاء ،واعتماده فيه على الأسلوب الساخر والمتهكم ،فتأسست المفارقة فى هذه التقنيات الأسلوبية ،والرؤية الفكريةٍ والنفسيةٍ، وماعبرت به عن انفتاح الشاعر على ثقافة عصره، وارتباطه بها، فساعدت المفارقة على الجانبين الانفتاح الفكرى والارتباط الداخلى، إلى تأسيس حالةٍ من الجوانب الوجدانية عند الشاعر، والشعور بانسجام الأخطل مع الحركة الإسلامية فى العصر الأموى، والتى كانت ترفع من شأن التوجهات الدينية للحفاظ على هويتها، فجارى الشاعر هذا النظام بحكم موقعه وقربه من الخلافة.

فظهرت مفارقات الرموز الدينية بين الإسلام والمسيحية ينتهج فيها الشاعر أسلوب التقارب مع الإسلام، على اعتباره نصرانياً، يحاول أن يصنع النظرة القيميذة فى بعض النشاطات الحياتية، وخاصة فى مدحه ،وفخره ،وفى إحساسه بالشيّب، من خلال الاعتماد على معانى القرآن الكريم، والتوافق معها.

<u>أنواع المفارقة فى شعر الأخطل التغلبى.</u>

يحتوى ديوان الأخطل التغلبى بوجهٍ عامٍ على سمات التنوع فى الأغراض والموضوعات الشعرية، والتى اتجهت إلى المدح والهجاءً والفخر، والتغزّل.

"وفى ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله، تحسّ فى قصائده ضرباً من الدعوة السياسية لبنى أمية، وعصر عبد الملك بن مروان، يُعد العصر الذهبى للأخطل، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمى للدولة[٤]، استطاع بفطنته أن يوظف شعره لخدمة الخلافة والفخر ببنى أمية، بالزود عنهم فى هجائه، بما أوتى من إمكانيات فنية بارعة فى خطابه الشعرى، الذى حمل ثقافة عصره، وأحداثه التاريخية والسياسية.

---

١ ـ الخطيئة والتفكير من النبوية إلى التشريحية). عبد الله الأفذامى ط. الأولى ، النادى الأدبى الثقافى ، جدة، ١٩٨٥م، ص ٢٣.

٢ ـ شعرية دوستويفسكى ميخائيل باختين. ترجمة : جميل ناصيف التكريتى، ط. الدرار البيضاء- توبقال ١٩٨٨، ص ٢٥.

٣ ـ الشعرية العربية. أرونيس. دار الأداب، بيروت، ط. الثانية ، ١٩٨٩م ، ص ٧٨.

٤ ـ العصر الإسلامى (مرجع سابق)، ص ٢٥٨.

فتتابعت خطواته فى الفخر والمدح والهجاء بصورةٍ كبيرة جداً، اعتمد فيها على الأسلوب الساخر .

فكانت المفارقة التى طرحت شغف الأخطل بالخلافة الأموية، وبمحاولاته الواضحة فى التقرُّب إلى الأمويين .

فتحوَّل شعره إلى لغةٍ متواصلةٍ مع الواقع السياسى بكل جزئياته ، وتأثيراته على الشعراء ،فيخاطب من خلالها ،يمدح ،ويسخَر ،يتهكم ،ويفتخر .

فجاءت المفارقة ظاهرة بارزة فى شعر الأخطل التغلبى ،مليئة بالأحداث ،والشخصيات ،تُفصح عن ارتباط الشاعر بعصره .

وقد جاءت على أنواعٍ ،منها :-

أولاً : المُفـــارقة اللاشخصية .

تُجسِّد المُفارقة اللاشخصية فى شعر الأخطل الصفة الغالبة فى شعره ،لأنها قدمت لحوادث وأحداث عصره ،ولأهم الشخصيات التى مدحها الشاعر من بيت الخلافة ،فقد مدح "عبدالملك بن مروان "، ومدح أولاده ،وقام بهجاء من يُعاديهم .

فجاءت المفارقة اللاشخصية ،أو المفارقة الموضوعية .

أفرزت مفارقته لغة أسلوبية تتناسب مع سياق الموقف ،فظهر فيها :مستويات الانزياح الدلالى :"لمفارقة الاستفهام المجازى، أبرز الظواهر الأسلوبية فى خطابه الشعرى .

ثانياً : مُفارقة التنافر البسيط .

تظهر مفارقة التنافر البسيط فى توظيف الشاعر للرموز الدينية :الإسلامية والمسيحية ــ غالبًا ــ فى قصيدة واحدة ،أو بيتٍ شعرىٍّ واحدٍ ،يكشف عن القيمة المُوحية للعقيدتين ،استنادًا على الصور الواقعية لهما .

فتصدر مفارقة التنافر البسيط بين الإسلام والمسيحية ،كنافذةٍ قيِّمية يستند إليها الأخطل .

مُستويات الانزيَاح الدلالى فى المفارقة اللاشخصية فى شعر الأخطل .

تأتى مفارقة الاستفهام المجازى،أول هذه المستويات ،وأبرزها .

تحدث الكثيرون من علماء اللغة والأدب على الاستفهام البلاغى، وكان المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة لأبى تمام هو أول من أشاد بدور الاستفهام البلاغى، ودلالاته الفنية، وأثره الجمالى فى الشعر ، وما يخلقه من علاقات جمالية بارزة، فقدم للاستفهام البلاغى أنواعاً متعددة (كالتنبيه، والوعظ، والتعجب، وغيرها من معانى الاستفهام البلاغى)[١].

فقد أحدث أسلوب الاستفهام فى الشعر العربى بصفةٍ عامةٍ دوراً بارزاً فى إبراز التجربة الشعرية، بما يحمله من إمكانيات متنوعة، لها قدرة على التجاوب مع التجربة الشعرية، وخلق الأثر، والكشف عن مقاصد الشاعر، "تتنوع القيمة الفنية للأسلوب الاستفهام، فقد يكوّن حواراً مع النفس، أو مع الغير، ولهذا فإنه يتعلق بالعمل الأدبى، وبنيته. والاستفهام غالباً ما يتصل بموقفٍ خاصٍ، ينزع صاحبه إلى تحقيق، وكشف، أو تصوير موقف. فيُشرك المتلقى فيه، لذلك فالاستفهام يكشف أيضاً من نزوع الإنسان نحو التعرُّف على نفسه وعالمه، ورؤيته لقضايا الوجود والمجتمع.[٢]

١ ـ شرح ديوان الحماسة لأبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى، تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون، ط. دار الجيل- الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ٢١١.

٢ ـ أساليب الاستفهام فى الشعر الجاهلى: التركيب والموقف والدلالة (دراسة نحوية وبلاغية للاستفهام فى ضوء الموقف الشعرى)، حسن عبد الجليل يوسف، ط. دار الثقافة النشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص ٢.

ويعد الاستفهام من الأساليب الإنشائية الطلبية، التى تحمل على الحقيقة وطلب العلم بالشيء أو فهمه.

والاستفهام لغة مصدر: استفهم: أى طلبت الفهم ، يقول ابن منظور: "وأفهمه الأمر، وفهَّمه إياه: جعله يفهمه"[١].

"واصطلاحاً : يُعرف بطلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوماً من قبل، بإحدى أدوات الاستفهام.

وهو نوعان: حقيقى يتوخى صاحبه معرفة ما يجهله، مجازى: يكون السائل عالماً فيه بما يسأل عنه، لكنه يقصد فيه معنى من المعانى المجازية.[٢]

ومن المعانى المجازية للاستفهام : الأمر ، النهى – التسوية – الاستئناس، التهويل – الاستبعاد – التأكيد – الاستعظام – التمنى – التحفيز .. وغيرها.

يقول الأخطل التغلبى: [البسيط] [٣].

هـلْ الشّـبابِ الـذي قـدْ فـاتَ مَـرْدُودُ؟ أمْ هـل دواءٌ يـرُدَّ الشـيبَ موجـودُ؟

لـن يَرْجِـعَ الشَـيبُ شَـبّاناَ، وَلـن يجـدوا عـدلَ الشـبابِ لهـمْ، مـا أورقَ العـودُ

إنّ الشـبابَ لمحمـودٌ بشاشـتَهُ والشّـيب منصـرفٌ عنـه ومصـدود

تأتى القصيدة من غرض المدح ،فهو يمدح فيها "يزيد بن معاوية " ،ويسير على نهج القصيدة الجاهلية ،فى الابتداء بالمقدمة الطللية ، والتغزُّل ، فيقول :-

بانـتْ سُـعاد ،ففـى العَينَـين تَسـهيدُ، واسـتَحقَبَتْ لبَّـهُ، فالقلـبُ مَعْمُـودُ

ويستمر الشاعر فى المقابلة بين الشباب والشيّب ،البخلُ، والجودُ، من الغوانى ، فيقول :-

يَقُلـنّ: لا أنـت بَعْـلٌ ،يُسْـتَفاد لـهُ ولا الشّـبابُ، الـذى قـدْ فـاتَ ،مـردُودُ

أمـا يَزيـدُ فـإنِى لسْـتُ نَاسِـيَهُ حتـى يُغيِّبَنِـى ،فـى الـرَّمسِ، ملحُـودُ

تعرض الأبيات صورة متضادة بين الشباب والشيَّب ،وموقفه من الغوانى اللواتى ، وبعد ذلك يتحدث عن يزيد وعن حُبه له الذى سيظل معه حتى يُلحد فى قبره ،ثم يأتى بالاستفهام المجازى فى موقف الشباب/ والشيِّب. وهما من المفارقات اللفظية للطباق، لكنهما قد ارتبطا بالموقف العام للقصيدة، وهو الحديث عن الشباب وبشاشته، وما يفعله الشيِّب فى الإنسان، وسخريته من نفسه كما يقول عن مُعايرة الغوانى له ، وهو هنا قد ظهر تأثره بالقرآن الكريم في قوله تعالى : "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا". وبقوله عن الشباب :(القوة) والشيب :(الضعف) : "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً".

---

١ - ابن منظور، (سابق) ، مادة (فهَّم).

٢ - الصاحبى فى فقه اللغة وحُسن العرب فى كلامها. أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) ، قام بتصحيحه ونشره المكتبة السلفية، ط. المؤيد ، القاهرة، (١٣٢٨هـ – ١٩١٠ م)، ص ١١٢.

٣ - شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٧٨.

فتساءل الشاعر عن الشباب والشيب، ليس استفهاما عنهما، لكنه نوع من التمنى وحبّ الشباب، والتحسُّر على الضعف، والسخرية منه ،كما أوردها على لسان الغوانى : لا أنتَ بعْلٌ يُسْتفاد له ....

وقد أبرز الاستفهام المجازى هذه المفارقة على المستوى العام للقصيدة ،لأنه خرج عن مرجعيته الأُسلوبية فى السُؤال إلى دلالاتٍ أُخرى من التمنى ،والتحسّر والتهكم ،وتُسمى هذه الوظيفة :" الانزياح الدلالى"،كما جاء فى قول الشاعر : وتحسُره على الشباب فى البيت السابق :

هــلْ الشّــبابِ الــذي قــدْ فــاتَ مَــرْدُودُ؟ أمْ هــــل دواءٌ يـــرُدَّ الشـــيبَ موجـــودُ؟

خرج الاستفهام هنا عن مرجعيته فى السؤال ، ليُمثل انزياحًا دلاليا ،يقصُد منه الشاعر التحسُّر على الشباب .

ومن الانزياح التركيبى أيضًا فى تراتبية الجملة ،يأتى التقديم والتأخير فى قوله : والشيِّب مُنصرفٌ عنه ومصدود، فالأصل النحوى فى الجملة : والشيِّب منصرفٌ ومصدُودٌ عنه .قدم الجار والمجرور "عنه" ،للتأكيد .

وقد تنوعت مواضع الانزياحات فى شعر الأخطل، فكان الانزياح الدلالى أكثرها حضوراً، وثراءً للمعنى، لذلك سوف يركز البحث جُهده فى تتبع ظاهرة الانزياح الدلالى للاستفهام المجازى ،لأنه ورد فى أكثر من موضعٍ فى شعر الأخطل ،مُمثلاً خروجاً على دلالته السياقية إلى دلالةٍ أُخرى ،تبتغى تجربة الشاعر ،ورؤيته الساخرة فى بعض الأحيان ،لذلك يُطلق على مثل هذه الظواهر الأسلوبية فى تغيير حركاتها ،والخروج من مرجعيتها، الانزياح الدلالى .

فما الانزياح الدلالى ، وما علاقته بالمفارقة والشعرية؟ .

الانْزِيَــــــــــــــاح :مصطلحٌ غربىٌ le cart ، يقوم على عمليات الاختيار والتوظيف الأُسلوبى فى النص الإبداعى ،بُغية إحداث الأثر فى المستمع ،فيستوعب شخصية المُبدع ،لأنه المُدلل على كلِّ ما يقول ،وما يُصوره فى تجاربه بطريقته الخاصة ،التى تبحث فى خفايا الكلمات ،ومدى تأثيرها على المستمع ،من أجل خلق الأَثر الدلالى وما فيه من انجذابِ المستمع إليه.

فحاول المُبدع بكل طاقاته أن يُبدل الأماكن ،وأن يخرج عن مِعيارية اللغة وتراتُبيتها المعرُوفة إلى ترتيبٍ آخر ،يُراعى في المقام الأول خلق الأثر .

من هُنا كانت ظاهرة الانزياح بمستوياتها المتنوعة هى الجانب الفنى لخلق الانجذاب عن طريق :التبديل والانحراف ،والخروج على القواعد اللغوية الثابتة فى تركيب الجملة إلى مشاطرة الشاعر أحاسيسه ،باختراق النظام اللغوى ،من أجل التشكيل الجمالى للأُسلوب ،فتجد على سبيل المثال : تقديمًا وتأخيراً، نعوتًا قد خرجت عن نعتها ،كما فى الاستعارة ،التشبيه ...وغيره.

يُشكل هذا الكيان الإجرائى لغة قوية ، أكثر إيحاءً، وشاعرية ،تدخُل ضمن بنية المفارقة ؛لأنها تساعدها فى تعميق المعنى عن طريق تلك الطُرق الإجرائية فى السياق الشعرى، والتى تعددت مصطلحاتها، فكان منها :

"الانزياح le cart، التجاوز la bus،الانحراف la deviation ،الانتهاك leviol.المُخالفة infraction"[١]

وقد استقر المصطلح إلى " الانزياح " :" الزاء ،والياء، والحاء . أصل الكلمة ،ومعناه : زوال الشيىء ،ويُقال : زاح الشىء :يُزيح إذا ذهب ."[٢].ارتبط الانزياح فى اللغة بالتباعد ،كما واضح من معناه الظاهر ،وجذره اللُغوى ، وربما لم يبتعد معناه الاصطلاحى عن معناه اللغوى السابق ،فقد عُرف فى الدراسات النقدية والأسلوبية بخصائص التباعد والاستبدال ،والخروج عن القاعدة اللغوية ،من أجل حدوث ميزة خاصة فى السياق ،يعدِلُ بها المُبدع عن مرجعيتها الثابتة ،أو القياس المعرف عنها ،لتحقيق حِراكٍ دلالى ،داخل العلاقات السياقية ،" فالعلاقات الاستبدالية التى تختصّ بحالات الاستبدال ،فى حضور بعض الانزياحات الدلالية ،أو التركيبة ،يكشف عن ميزة استبدال الأدوار ،أو(المُزية) بوصفها إمكانًا متنوعًا ،ينطلق من العلاقات الاستبدالية فى السياق ،للوصول إلى معنى المعنى ." [٣]

ارتبط الانزياح بهذه المفاهيم التى أبرزت معانيه ،وارتباطه بخرق قوانين اللغة وقواعدها للتأثير على السامع ،"ولن يأتى هذا التأثير من الأسلوب الشائع ،ولا من القواعد المُستهلكة ؛وإنما بمجاوزة الشاعر للمستوى العادى فى الكلام ، ولمعايرة الثوابت الأسلوبية "[٤].

عرَّفه النقد الحديث فى ارتباطه بلغةٍ خاصة ،ليست هى اللغة العادية ؛وإنما هى لغة تفجيرية لإمكانيات اللغة الإيحائية :"ارتبط فى البلاغة اليونانية عند أرسطو بالفريق بين اللغة العادية المعرُوفة ،وبين اللغة الغريبة الغير مألوفة ،مؤكدًا أن الثانية هى اللغة الأدبية التى تخرج عن القاعدة فى طُرقٍ متنوعة ،مثل : التقديم والتأخير ،العُدُول ،وغيرها من الظواهر التعبيرية ،ويعد الجرجانى من أبرز النقاد العرب اللذين تطرقوا فى مواضع عدّة ،بما يُلامس هذا المصطلح ،ثم جاء فى العصر الحديث عبد السلام المُسدى ،وكتابه الأسلوب والأسلوبية ، وصلاح فضل ،وغيرهم ممن تناولوا ،الطاقات الإيحائية والتعبيرية فى الأسلوب الأدبى "[٥].

ويُعد هذا التعريج الطويل فى التعريف لمصطلح الانزياح ،تقديما لطاقاته المتميزة فى شعر الأخطل ،ودوره فى إبراز شعرية المفارقة عنده .

أنواع الانزياح :-

الانزياح الدلالى ،الانزياح التركيبى .

الانزياح الدلالى : يأتى الانزياح الدلالى ضمن التعريف المعروف للانزياح فى خروجِ النص عن مِعايرته التى تم التعارف عليها ،إلى معيارية أخرى تبتكبر من التحولات الأسلوبية والتعبيرية نظامًا جديداً فى لغة الشعرِ بصفةٍ خاصةٍ ،لما يحمله من تجارب حياتية ،لا تُمثل بلغة النثر ،لذلك اتسم الأسلوب الشعرى بالتنوع والإثارة ،والاعتماد على الانزياح بنوعيه : الدلالى والتركيبى ،فأما الأول : فيسمى خروج الكلمة عن دلالتها المعروفى ،أو انزياح النعوت عن منعوتاتها فى سياقٍ مُغايرٍ لصفاتها ، يعتمد على انثيال اللحظة الشعرية، كذلك خروج الأساليب من تعريفها إلى معانى دلالية أخرى ،مثل الاستفهام ،الذى يخرج عن دلالة السؤال إلى

١ ـ الأسلوب والأسلوبية .عبد السلام المُسدى .ط: الثالثة الدار العربية للكتاب .ص: ١٠٨
٢ ـ مقاييس اللغة .ابن فارس .تحقيق عبد السلام هارون .ط: اتحاد الكُتاب العرب ٢٠٠٢م .الجزء الثالث .ص: ٣٩
٣ ـ اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفى للعلم .طارق النعمان .ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٣م ص:٢٩٦
٤ـ الأسلوب والأسلوبية .ص: ١١١
٥ ـ محمد ويس الانزياح من خلال الدراسات الأسلوبية .ط: المؤسسة الجامعية للدراسات ٢٠٠٥م .ص: ٨٣

دلالاتٍ أخرى ،فيسمى الاستفهام المجازىُ ،وتأتى الاستعارة والتشبيه ،بصورةٍ متميزةٍ فيها من الابتكار والتجديد .

وأما الانزياح التركيبى ،فهو يعتمد على تغيير الرُتبة فى الجملة ،فنجد التقديم والتأخير ، الحذف الفنى ،ودوره فى التلميح ،من أجل تحقيق إسنادية دلالية ،تُوحى بتجربة الشاعر .

الانزياح وعلاقته بالمفارقة والشعرية .

اتضح من المعانى السابقة فى الميزة التى بها اتصف بها الانزياح بخروجه عن القاعدة ،بأنه يرتبط بسلوك الشاعر ،ورؤيته للأحداث. فيرى جون كوهن :" أن الشرطالأساسى والضرورى لحدوث الشعرية ،هو حصول الانزياح ،باعتباره خرقًا للنظام اللغوى المُعتاد ،وممارسة استيطيقية ."[١] ،تتحول إلى علاقاتٍ دلاليةٍ فى السياق الشعرى ،فتزيده قوة ،وتدبُراً ،ليظل المعنى يبحث عن معنى آخر ،أقوى دلالة ،وأقوى تأثيراً فى نفس المستمع ، فتحمل الكلمة رؤية دلالية مكثفة ،وغاية شِعرية ،تؤكد أن الانزياح يخلق الشِعرية .

"فالشعرية موضوعها الحقيقى ،هو ما يكتسبه النص الشعرى من جماليات ،جاءت من الخروج عن النظام الثابت فى اللغة ،أو الانزياح ،فأدى هذا الاختراق إلى شعريِّة النص ، وعلى هذا قسم الأسلوبيين اللغة إلى مستويين : مستواها المثالى فى الأداء العادى ، ومستواها الإبداعى الذى يعتمد على اختراق هذه المثالية ."[٢]

وأما المُفارقة فهى البنية التعبيرية الكُبرى ،التى تُقدم الوقائع والأحداث والشخصيات فى حسٍّ عميقٍ ،يعكس عن أثر تحولات الواقع على الشاعر وفكره ،ووعيه الداخلى .

فيُقدم الشاعر هذا الواقع فى صوره المتنوعة التى قد تُعجبه ،أو يعدِل عن ذلك ،فيرى سلبياته ، فيتهكم منه ،مستندًا إلى لغة لها قدرتها على إبراز المتناقضات ،فيقدم ،ويؤخر من أجل أغراضه ، أو يحذف ،أو يمنح صوره نعوتًا خاصة ، تشير هذه التوظيفات الفنية إلى لغة الانزياح ،واستمرارها فى خلق الأثر ،والتوتر المستمر منه .

" تكمن العلاقة بين الشعرية والمفارقة من فاعلية الأدوار المُتبادلة بينهما ،فإذا كانت الشعرية ترفد المفارقة بالانجسام والنعومة ؛فإن المفارقة ترفدها بالتوتر الذى يتشكل من الطاقات التعبيرية فى اللغة الشعرية ."[٣]

ويمكن تقريب هذه الصورة الفنية للانزياح وعلاقاته المتنوعة فى شعر الأخطل ،وخاصة الانزياح الدلالى .

ومن مستويات الانزياح الدلالى فى شعر الأخطل ،الانزياح الاستفهامى ،أو الاستفهام المجازى :

يقول الشاعر: فى المدح [٤] [البسيط]

جـــزاءَ يوسُـــفَ إحســـاناً ومغفـــرةً أوْ مِثْـــلَ مـــا جُـــزِّيَ هـــارُونٌ. وَداودُ

١ ـ بنية اللغة الشعرية .جون كوهن .ترجمة محمد الولىّ العمرى .ط: دار توبقال .الأولى المغرب ١٩٨٦م ص:١٦
٢ ـ البلاغة والأسلوبية . محمد عبد المطلب . ط: الأولى مكتبة لبنان ـ مصر ١٩٩٤م .ص: ٢٦٨
٣ بناء المفارقة "دراسة نظرية تطبيقية أدب ابن زيدون نموذجًا " .أحمد عادل عبد المولى .ط: مكتبة الآداب القاهرة ٢٠٠٩م .ص:١٩
٤ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ١٥٢.

أعطـــاهُ مـــن لـــذةِ الـــدنيا وأســـكنه فـــي جَنّـــةٍ نِعْمَـــةٌ فيهـــا وَتَخْلِيـــد

هـــل تبلغنـــي يزيـــداً ذاتُ معجمـــة كأنّهـــا صـــخرةٌ صـــماء صـــيخود؟

تأتى الأبيات فى غرض المدح ليزيد بن عبد الملك، ويتضح منها تأثره بقصص الأنبياء التى وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى عن يوسف:

"وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [يوسف – آية (٥٦)]

وفى قوله تعالى عن نوح عليه السلام وقد ذُكرت قصة نوح فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فى الأعراف الآية (٥٩-٦٤)، ويونس (٧١-٧٣)، وهود (٤٧-٤٩)، والأنبياء (٧٦-٧٧)، والمؤمنون (٢٣-٣١) وغيرها من بعض السور القرآنية، يقول تعالى : "وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" [هود – آية (٣٧)] - وقوله : "قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۞ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا" [المؤمنون – آيات ٢٦-٢٧] - وقوله فى استجابته لدعاء نوح : "فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ" [القمر – آيات ١٠-١١].

ثم ذكره للجنة، الخلود، وهما من المعجم القرآنى، وقد ربط الشاعر هذه المعارف بمدحه ليزيد بن عبد الملك ووصفه له بالقوة فى انزياح دلالى للاستفهام المجازى فى البيت الأخير ،والذى خرج عن مرجعيته فى السؤال إلى دلالات التخصيص والتأكيد على قوة يزيد ،وتشبيه له بالصخرة القوية .

وقد جاء الاستفهام المجازى هنا على سبيل التشبيه والتمثيل ،"واعلم أنا وإن كنا نُفسّر الاستفهام بمعانى كثيرة ،لينتبه السامع ،وقد يزيد الأمر الاستفهام عندما يأتى على سبيل التمثيل ."([1]). وفى البيت السابق الذى يمدح فيه الأخطل يزيد بن عبد الملك ،مثّل المعنى فى التشبيه التمثيلى ،ليرى المستمع قوة الممدوح ،وهذا من مميزات الاستفهام المجازى ،لأنه منذ البداية :لغة إنزياحية ،تخرج عن أصلها المرجعىّ ،لما يكمُن فيها من مزيات التنوُّع ،المُثقلة بالمعانى اللفظية والمعنوية التى تمنح الخطاب الشعرى ،تحقيقاً دلاليًا لما يقصُده الشاعر .

ويقول أيضاً: - فى الهجاء.[2] [البسيط]

مخلَفـــونَ، ويقضـــي النـــاسُ أمـــرهمُ وهُـــمْ بغَيْـــبٍ وفـــي عَمْيـــاءَ مـــا شَـــعروا

قـــومٌ تناهـــتْ إلـــيهم كـــلُّ فاحِشـــةٍ وكـــلُّ مُخزيـــةٍ، سُـــبَّتْ بهـــا مضـــرُ

الآكلـــونَ خبيـــثَ الـــزّادِ، وحـــدَهُمُ والســـائلونَ بظهـــرِ الغيـــبِ مـــا الخبـــرُ؟

١ ـ دلائل الإعجاز .الإمام عبد القاهر الجرجانى .صححه :السيد محمد رشيد رضا .ط: السادسة مطبعة محمد على صُبيح وأولاده ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م .ص: ٩٠

٢ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ١٥٥.

يَظهر تأثره بالقرآن الكريم فى هجائه لمضر بن نزار، وهى قبيلة عظيمة منها رهط جزء من كليب بن يربوع، وقد تأثر بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : "قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ " [الفتح – آية ١٦].

يتضح الأسلوب الساخر عند الأخطل مرتبطاً بالهجاء ،وهذا أمرٌ طبيعى ،لأن الأسلوب الساخر ،أحد أساليب الهجاء فى نقد الموقف ،أو إبراز عيوب الشخصيات :مُخلفون ، عمْياء ، فاحشة ،ومخْزية ، الآكلون خبث الزَّاد ، ثم يأتى الانزياح الدلالى للاستفهام المجازى، ليؤكد سُخريته ،ومعانى التحقير فى هجائه لهم بما حمله من دلالات التوبيخ والاستنكار.

وتربط ظاهرة الانزياح الدلالى للاستفهام المجازى ،بالانزياح التركيبى فى البيت السابق ،وتقديم :الجار والمجرور فى قوله : سُبَّت بِها مُضر ،والأصل فى القياس النحوىّ: سُبَّت مُضر بها ،وذلك للسخرية والتهكم ،والتحقير .

شكلت الظواهر السابقة الأسلوب الساخر للشخصيات فى شعر الأخطل فى رؤيته الدلالية القوية ،التى تنتهج السخرية فى هجائه اللاذع ،وما وظفّ فيه من انزياحاتٍ دلالية وتركيبية ،لها قدرتها على التأثير فى المتلقى ،معتمدًا أيضًا فى هجائه على القرآن الكريم .وهو من ضمن المفارقات فى شعره ،توظيف المعنى القرآنى مرتبطاً بأسلوبه الساخر ،ليقوى دلالته من خلال الفكرة الدينية ،وربطها بكل موضوعاته الشعرِّية .

ومن الأسلوب الساخر عنده ،والذى أكد على أن غالبية السخرية من السخرية الشخصية ،المرتبطة بالهجاء عند الأخطل، فيقول الشاعر فى هجائه للفرزدق:- [الطويل]

أتطلـــبُ عاديـــاً بنـــى اللهُ بيتَـــهُ عزيـــزاً، ولـــم يجعـــلْ لـــكَ اللهُ بانيـــاً؟

سَـــعَيْتَ شَـــبابَ الـــدَّهْرِ، لـــمْ تســـتطِعْهُمُ أفـــأ لآنَ، لمَّـــا أصـــبحَ الـــدهرُ فانيـــاً؟

تشى المفارقات بين الجمل : بنى الله بيته / ولم يجعل لك الله بانياً؟ وشباب الدهر / والدهر فانيا؟ مع الاستفهام المجازى بهجائه للفرزدق، وسخريته منه : ولمْ يَجْعل لك ،واعتزازه بنفسه: أَتطلبُ عادياً ،عزيزاً ، ثم تضمينه من معانى القرآن الكريم عن فناء الدهر، فى قوله نعالى : "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ " [الجاثية – آية ٢٤].

فيسوق الانزياح الدلالى للاستفهام المجازى هذه المعانى الساخرة، إلى جانب الانزياح التركيبى للتقديم ، فى قول الشاعر :ولم يجعلْ لكَ اللهُ بانياً ،فلأصل :ولمْ يجعل الله بانياً لك ،أفاد ذلك التقديم دلالات التأكيد على السخرية والتهكم .

أبرزت انزياحات النص الشعرى دلالات المفارقة الموقفية عند الشاعر ،وما حملته من تطرقٍ إلى بعض الشخصيات ،فحملت المفارقة طبيعة الأخطل الحادة فى الهجاء ،وانفعاله الشديد فى الاعتزاز بنفسه، وهجاء غيره.

فتشبع الهجاء عنده بالجمع بين المتضادات بين الألفاظ ،ومجازية فى الاستفهام ،وما حمله من دلالات السخرية والتوبيخ ،والاستنكار ،كذلك تأثره فى كل هذا بالمرجعية القرآنية ،فى الأحداث والمواقف ،وقدرته على تحميل أسلوبه كل هذه المقومات

والأسلوبية والدلالية ،فورد الاستفهام المجازى ،مرتبطاً بالمعانى القرآنية ،وبموضوعاته الشعرية ،مؤكداً معاني الشاعر، ومقاصده من وراء توظيف الاستفهام المجازى، وأدواته .

والتى كان أبرزها الهمزة ،وهل .وأدوات الاستفهام هى، "هل، والهمزة"، والتى خرجت عن سياقها الأصلى فى السؤال "فخروج الاستفهام من سياقه الأصلى، إلى غرضٍ من الأغراض الأخرى، والتى نعرفها فى السياق، كالتمنى، والتأكيد، والتوجع، إنما يرجع إلى مقاصد المتكلم"[١].

ويستمر الانزياح الدلالى للاستفهام المجازى عند الأخطل فى تنوعه بين الهجاء والمدح ،وفى المدح يرتبط الاستفهام المجازى بمجموعةٍ من القيم الأخلاقية، التى يبثها من خلال توظيفه لمعانى القرآن الكريم، كدليلٍ على ما يقول، ودليل أيضاً على تشرُّبه معانى القرآن الكريم على الرغم من نصرانيته.

يقول الأخطل فى مدحه لآل بيت رسول الله ρ ومنهم بنى أميمة.

ففى المدح يقول:[٢] [البسيط]

أعطـــاكمُ اللهُ مـــا أنـــتمْ أحـــقّ بِـــهِ ... إذا المُلـــوكُ ، علـــى أمثالِـــهِ اقتَرعُـــوا

لَيْسُـــوا إذا طـــردُوا ، يَنمـــى طريـــدُهُمُ ... ولا تنـــالُ أكُـــفُّ القـــومِ مـــا منعُـــوا

فـــاليوم أجهَـــدُ نفسِـــى، مـــا وسِـــعت لكـــم ... وهـــل تَكَلّـــفُ نفـــسٌ فـــوق مـــا تســـعُ؟

يتضح من الاستفهام المجازى فى آخر البيت تأثر الشاعر بالقرآن الكريم فى قوله تعالى :

"لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " [البقرة – آية ٢٨٦].

وجاء الاستفهام المجازى للتأكيد على ما يقول ، فى مدحه لآل بيت الخلافة الأموية.

فخرج الاستفهام فى الأبيات السابقة عن طبيعته فى السؤال إلى أغراضٍ دلاليةٍ أخرى، ارتبطت بالقرآن الكريم، وما يحمله من دلالاتٍ أخلاقية متنوعة.

وأكد الانزياح التركيبى فى تقديم الجار والمجرور ،فى قولـه : إذا المُلوكُ ، على أمثالِهِ اقتَرعُوا ،فالأصل :إذا الملوك اقترعوا على أمثاله .

أفاد الانزياح التركيبى، والخروج عن القاعدة النحوية دلالا ت التعظيم والتفخيم ،لعبد الملك بن مروان .

ومن أبرز ماجاء فى سخرية الأخطل ،هذا الانزياح الاستفهامى ،أو الدلالى ، لما قاله الأخطل من الاستفهام المجازى، وما حمله من معانى إسلامية ظاهرية ،تشير ظاهريًا إلى أثر العقيدة الإسلامية فى شعره ،واستيعابه ثقافة عصره.

يقول الشاعر:-[٣] [الطويل]

شَـــربنا فمتنـــا ميتـــةً جاهليـــةً ... مضـــى أهلَهـــا، لـــمْ يَعْرفـــوا مـــا محمّـــدُ؟

حَيينـــا حيـــاةً ، لـــمْ تكُـــنْ مِـــنْ قِيامَـــةٍ ... علينـــا، ولا حشـــرٌ أتانـــاهُ موعـــدُ

جاء فى الاستفهام المجازى معبراً عن موقفٍ ساخرٍ من الخمر ،واللهو والمجنون ، وما حدث فيه ،وكأن أصحابه لم يعرفوا "مُحمد" رسول الله ρ ،فارتبط ذكره صلى الله عليه وسلم بالقيم

---

١ ـ أسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم وأغراضه. عبد الكريم محمود يوسف، ط. الأول، (١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م)، ط. مطبعة الشام، دمشق، ص ١٧.

٢ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٢٦٠.

٣ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ١٦٤.

الدينية التى بثّها الشاعر ؛ ليسخر من موقف الخمر والمجون من خلال مفارقة موقفية جمعت بينه وبين مجموعة من رفاقه ، وما فعلوه من جاهليةٍ، و عاداتٍ سيئةٍ، نهى عنها الإسلام، المتمثل فى شخص (مُحمد)، ثم ذكر القيامة، والحشر.

فحمل الاستفهام المجازى دلالات الاسترشاد بمحمدٍ ρ وتعاليمه الأخلاقية عن طريق التضاد بين الجاهلية والإسلام ،وقيَّمهما المختلفة ،وتلك العلائقية التى تتضح من فعل الإثم والجزاء عليه يوم القيامة .

فابتكر الأخطل هذه العلائقية فى سخريته بين الاستفهام المجازى ،وما أشار إليه من سخريته من موقفٍ قد حدث له ،وكأنه يستنكر ذلك مسترشدا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم ،وبالقيامة والحشر .

.يُحاول الأخطل أن يوضح من خلال أسلوبه الساخر من الأحداث والشخصيات ،ارتباطه بقيَّم الدين الإسلامى ، محاولاً أن يبنى مفهوم العلائقية ببيئته وعصره من خلال انزياح الأساليب عن معانيها إلى دلالاتٍ أخرى ،تسترشد بالعقيدة الإسلامية .

وتستمر هذه العلائقية ،متجسدة فى شعر الأخطل ،للربط بين المواقف والشخصيات ،وما يحدث عليها من تغيُّرٍ وبين الثوابت فى الشريعة الإسلامية ،وخاصة التركيز على الفناء ،والدهر ،الحشر والقيامة ،وغيرها من المفاهيم المُستقرة فى القرآن الكريم ،والتى لها أثرها فى نفس المُخاطَب .

كما يقول:-[1] [البسيط]

إنَّ ربيعـــةَ لـــنْ تنفـــكَّ صـــالحةً ... مـــا أخّـــرَ اللهُ عَـــنْ حَوْبائـــكَ الأجَـــلا

أغـــزّ لا يَحْســـبُ الـــدَّنْيا تُخَلِّـــدُهُ ... ولا يقـــولُ لشـــيءٍ فـــاتَ : مـــا فَعَـــلا؟

بنفس الطريقة السابقة للاستفهام المجازى، وطريقته فى الانزياح الدلالى ، يتحدث الأخطل فى معظم أغراضه الشعرية عن الأجل والنفس، وأن الخلود ليس للإنسان، "وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا " [سورة المنافقون – آية ١١].

يتضح من الاستفهام المجازى دلالات التأكيد على هذا الأمر، وخاصة عندما يرتبط بمعانى القرآن الكريم، وما يحمله من توظيفٍ إلهى خاصٍ فى الاستخدام، اللغوى والبلاغى، فتجد استخدامه لغة القرآن الكريم، بغرض التأثير والتأكيد على أمورٍ خاصة، وأحياناً الاستهجان، والتفخيم، أو استخدام الاستفهام لتنبيه المخاطب.[2]

وقد أحسن الشاعر فى الاستشهاد بالقرآن الكريم، ليدلل بها على أقواله ، فى مفارقة على مستوى البنية الظاهرة بين الألفاظ والجمل، ثم مفارقة أخرى على مستوى التفاعل والانسجام مع توظيفه للفكرة الدينية ، وما تحمله من قيمٍ أخلاقية، جاءت من القرآن الكريم. ولعل هذا ما يُخالف عقيدته، ويبرز مفارقة التنافر ،أو الذّات ،وهى من أبرز أنواع المفارقة فى شعر الأخطل ،لأنها تبنت رؤيته لعصره ،وطريقته فى طلب الاستجداء من الخلفاء ،وقدرته النافذة على إقناع المتلقى بثقافته الإسلامية ،وقيمتها، فمنح شعره هذه الرؤى السلوكية الواضحة فى ربط الأمور الحياتية: الشيِّب / الشباب / الدهر / الفناء، السخرية من الشخصيات بالقرآن الكريم ، ومرجعيته الثابتة

١ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ١١٩.
٢ ـ قاموس قواعد البلاغة، مسعد الهوارى، ط. مكتبة الإيمان ، المنصورة، ١٩٩٥م ، ص ٩٣.

،فعبر علاقات التضاد فى الحياة والسخرية ،تلونت المفارقة ، وتنوعت دلالتها من خلال علاقات الانزياح الدلالى ، ودورها السياقى فى إبراز المعنى .

فظهر الانزياح الدلالى فى مفارقته فى الاستفهام المجازى ،وأغراضه المتنوعة، وجاء الانزياح التركيبى الذى لم يخرج على تقديم الجار والمجرور ،ليؤكد بدوره ،الحسِّ الفكرى والنفسى فى المفارقة الموقفية عند الأخطل ،وما حملته من ُصور الواقع الاجتماعى والسياسى فى العصر الأموى ،والواقع الفكرى والنفسى عند ه.

فقدمت المفارقة الموقفية ،انعكاسات الواقع السياسى فى ذلك العصر ،ومحاولة الشاعر الامتزاج والتجانس معه ،من خلال ظاهرة الانزياح الدلالى والتركيبى " للاستفهام المجازى "، وتقديم الجار والمجرور ،فكان الاستفهام المجازى هو أكثر الظواهر الانزياحية الثابتة فى السياق الشعرى عند الأخطل ،" فالانزياح يبحث فى العنصر الثابت فى لغة الشعراء ،وما يُحدثه الشاعر من علاقاتٍ خاصة يَعْدل بها عن القاعدة المعروفة ."[١]

فجاء الموقف الشعرى عند الأخطل التغلبى ،أو رؤيته الفكرية مرتبطة بأغراضه المتنوعة فى المدح ،والفخر والهجاء ،مستعينًا بالتجسيد من الواقع ،والربط بين الواقع وفكرته ، كما جاء فى الربط بين الشيِّب ،وأثره على الإنسان ،ومستعينًا أيضاً بالأثر الإسلامى .

منحت المفارقة بأنواعها عند الأخطل ،والتى برز ت فى المفارقة اللاشخصية ،أو مفارقة المواقف المتعدة ،للتجارب الحياتية والصراعات السياسية ،فكان الاستخفاف بالآخر فى الهجاء ،وأحيانًا الاستخفاف بذاته ،ومن المواقف والأحداث والشخصيات تجسدت مفارقاته ،وكذلك الأثر الإسلامى البارز بصورةٍ كبيرةٍ فى معظم أغراضه الشعرية .

فقارئ النص الشعرى لديه، يشعر بمدى تفاعله مع عصره، طلباً للاستجداء ،وطلبًا للعطاء والقرب من الخلفاء ،لذلك جاور ثقافة عصره، وخاصة الثقافة الإسلامية ، وما حملته من مفارقةٍ على مستوى الذات على اعتباره نصرانىّ ،استطاع بهذا الشكل أن يتفاعل مع القرآن الكريم.

إنها شاعرية المفارقة، التى تكمُن فى تجاوب الشاعر مع عصره ،ومع فكره، ومع الفكرة الدينية المهذبة للأخلاق، والمؤكدة على مفارقات الحياة، والخلود والفناء.

فانطلقت مفارقة الاستفهام المجازى ، لتحمل صورة المفارقة اللاشخصية عند الأخطل ،فتبث هذه القيم الدلالية فى شعره. إلى جانب توظيف الفكرة الدينية ،مرتبطة بالاستفهام المجازى ،وأغراضه الدلالية.

فتتضح المفارقة اللاشخصية عند الشاعر ،لتكشف عن ذاته الساخرة ،وارتباطه بعصره ، وبالرمز الإسلامى : القرآن الكريم، فجمع بين صورٍ من الواقع ليجسد مفارقته ،وذلك من خلال حبِّ الإنسان للحياة ،والشيّب ،الذى رافقه فى مفارقاته الساخرة ،وغيرها من الصور التجسيدية بين متضادين .

وقد اعتمد الأخطل فى مفارقته أيضًا على النص القرآنى .و الرموز الإسلامية والمسيحية، وفى ذكره لبعض الكُنى الخاصة بالدلالة كالخليفة – وأمير المؤمنين – والصوم – والأضاحى – والإمام ، والخطيب ، والرسول – والشافعية – وخليفة الله والحلف.

ومن المفارقة اللاشخصية أيضًا فى شعر الأخطل :-

١ – مفاهيم شعرية دراسة مقارنة في الأُصول والمنهج والمفاهيم .حسن ناظم .ط: الثالثة المركز الثقافى العربى – بيروت ١٩٩٤م ص: ١١٧

تأتى مجموعة من المواقف ،والتجارب ،التى تبرز المفارقة اللاشخصية ،وتشعبها عند الشاعر فى معظم موضوعاته الشعرية ،فتعبر مرّة عن الشيّب ،والموت ،وهما من أبرز موضوعات المفارقة اللاشخصية ،بما حملاه من جانبٍ فلسفىٍّ فى شعره ، يتعجب فيه من الناس ،ويتعجب أكثر من ازدياد شهوتهم للحياة ، ويستحضر فى هذا المشهد الحياتى النص القرآنى ،ومدى قدرته فى جذب المتلقى إلى خطابه الشعرى ،وما يتظاهر فيه من التحامٍ بالقرآن الكريم .

، فيتضح بصورةٍ أوسع وأشمل ،من خلال التضمين مع النص القرآنى ،و ثقافته الإسلامية فى كل نواحيها القرآنية، والتشريعية، والمنظومات المؤسسة للكيان الأموى.

وقد ارتبطت المفارقة اللاشخصية بالانزياح الدلالى :

"التشبيه":

يقول الشاعر :-[1] [الكامل]

والنّاسُ هَمُّهُمُ الحياةُ ، وما أرى ... طول الحياةِ يزيدُ غير خبال

وإذا افتَقَرْتَ إلى الذخائِرِ، لمْ تجدْ ... ذخراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ

ولئن نجوتُ من الحوادثِ سالماً ... والنفسُ مشرفةٌ على الآجال

اعتمد الشاعر فى أبياته على مفارقات الجمل فى البيتين الأولين ، فالشطر الأول يناقض الثانى فى حب الحياة، وزيادة الحب فيها يورث طول العمر، وطول العمر، يجعل الإنسان فى خبالٍ: أى عدم عقلٍ، ويقول تعالى :

"وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ " [يس – آية ٦٨]

ثم يؤكد التشبيه فى البيت الثانى على أن أهم ذُخر للإنسان فى حياته :ذخره ،وادخاره العمل الصالح، ذُخر الإنسان – يقول تعالى :

"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " [النحل – آية ٩٧].

ويقول:-[2] [الطويل]

وما مَنَعَتْ أسماءُ يوْمَ رحيلنا ... أمرَّ علىَّ منْ خطائى ومِنْ وِزْرِى

فثمَّ تناهينا، كلانا عن الصبا ... ولا شيءَ خيرٌ من تقى اللهِ والصبرِ

وتتفق الآيات مع معانى القرآن الكريم من التقوى والصبر، فى قوله تعالى:

"وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا" [عمران – آية ١٢٠].

ويقول:-[3] [البسيط]

ولقَدْ لبِسْتُ لهذا الدَّهْرِ أعْصُرَهُ ... حتى تجللَ رأسي الشيبُ واشتعلا

---

١ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ١١٠.
٢ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٤٧٠.
٣ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ١١٩.

تلّح على الشاعر دائماً نبرة الخوض فى أسرار الحياة ،وفلسفتها ،ولذّة اليقين ؛بالإحساس بحقيقتها المعروفة .وفى الكثير من المواضع الشعرية عنده ،اعتمد الأخطل على فلسفة المعرفة الحياتية ،والتى لايعرفها الكثير من الناس ،فانتهج طريقة التفكير فى المعنويات ، ربما للكشف عن استهجانه لبعض الأمور ،على الرغم من مدحه ،وغزله ،الذى نرى فيهما الإقبال على الحياة فى كل أشكالها .

قد يعود التناقض فى شعر الأخطل إلى حبِّه الشديد للحياة ،ولذلك التنوع فى صورها ،فى أفانينها العذبة ،لذلك فهو ينظر إليها نظرة كُلية ،يجمع فيها بين الإحساس بالإقبال والإدبار ،أو بين الشيّب والشباب ،الحياة والموت .

إنه مشهد الحياة الكُلى ،وحُبّها الخفىّ وراء كل متناقضات الأخطل ،ومعاتباته، وسخريته المجازية للدهر والشيّب .

فيقول فى بداية مدحه :للوليد بن عبد الملك[١] :

ولكِـــن هـــذا الـــدَّهر أصـــبَحَ فانِيًـــا تَسَعسَـــعَ ،واشـــتَدَّت علَيـــهِ تَجَارِبُـــه

نَفَـــى عَـــنهُمُ الأعْـــدَاءَ فُرســـانُ غـــارةٍ ودَهـــمٌ يَغُـــمُّ البُلقَ،خَضـــرٌ كَتائبُـــه

فَـــنَحنُ أخَ ،لـــم يُلْـــقَ فـــى النّـــاسِ مِثلَنـــا أخَـا ،حينَ شَـابَ الـدَّهرُ ،وابـيضَّ حَاجبُـه

رأيتَـــك ،والتكّليـــفَ نَفسَـــكَ دارمـــاَ، كَشَـيءٍ مَضَـى ، لا يُـدرِك الـدَّهرَ طَالِبُـه

لا يبرح الأخطل من استخدام " الدهر " فى الكثير من المواضع الشعريَّة ،بأغراضٍ مختلفة ،تُشير إلى صوت الإقدام والبطولة فى الحروب ،جعله الشاعر كاستجابةٍ شرطيةٍ للتذكر بأيام القوة ،فى مواقف القوة ،وتوافق معه أيضًا فى تمرده على الكُهولة .وحبّ الشباب .

استمرت فلسفة " الدهر " تتردد فى شعر الأخطل ،فى نشاطاتٍ متنوعة ،تتأثر بالمواقف والأحداث ،ومدحه لبعض الشخصيات ،ليجمع بين الجَلد والقوة والثبات أحيانًا ،والإحساس بالضعف ،والتمرّد على الشيّب أحيانًا أُخرى .

فتندرج معانى الثبات ،وصوت الحرب فى الأبيات السابقة ، وما أُوتى ممدوحه من قوةٍ مشهودة على مرور الزمان . وقد استخدم الشاعر من الصور البلاغية ما يُظهر ،ويكشف عن ممدوحه ، وقوته .فتتبعت الاستعارة هذه القيمة الموحية عن الدهر ،فى قوله :شابَ الدّهر ،وابيضّ حاجبه .

ويستمر الأخطل فى فلسفته الحياتية ،عن طريق استخدامه للانزياح الدلالى ،ووصف المجردات ،بنعوتٍ حسيّة ، ليعطى أسلوبه الشعرى حالة إيحائية ،لها أثرها فى نفس المتلقى ،ودورها فى إقناعه ،وخاصه اعتماده على النص القرآنى .

ويقول:-[٢] [الكامل]

وَقَضَـــيتُ بَينَكُمـــا قَضـــاءً فيصَـــلاَ فـــي النـــاسِ مِثـــلَ تَبَـــيُّنِ الفُرقـــانِ

يقول تعالى : "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ " [الفرقان – آية ١].

١ ـ شعر الأخطل التغلبى .ص: ٢٠٦

٢ ـ شعر الأخطل التغلبى . ص ١٧٢.

ويقول:-[١] [الطويل]

أعــاذلَ، إنَّ الــنفسَ فــي كــف مالــكٍ إذا مــا دعــا يوْمــاً، أجابَــتْ لــهُ الرَّسْــلا

ذرينـــي فَـــلا مـــالي يَـــرُدَّ مَنِيّتـــي ومــا إن أرى حيــاً ، علــى نفســه قَفــلا

يقول تعالى : " يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ " [الشعراء – آية ٨٨].

وقوله تعالى : " يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً " [الفجر – الآيات ٢٧ ، ٢٨].

ويقول:-[٢] [البسيط]

فقــدْ أجــاروا بــإذن الله عصــبتنا إذ لا يكــادُ يحــبُّ الوالــدُ الولــدا

قَــوْمٌ يَظَلّــونَ خَشّــعاً فــي مســاجِدِهِمْ ولا يَــدينونَ إلاّ الواحِــدَ الصَّــمَدا

يقول تعالى فى سورة الإخلاص : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ".

ويقول:-[٣] فى هجاء قيس عيلان [الخفيف]:

هَــلْ عَرَفْــتَ الــدّيارَ يــابنَ أوَيْــسٍ دارِســاً نُؤيُهــا كخَــط الزّبــورِ؟

بُــدِّلتْ بَعــدَ نِعمــةٍ وأنــيسٍ صــوْتَ هــامٍ ومَكْــنِسَ اليَعْفــورِ

علَلانــي بشَــرْبَةٍ مِــنْ كَميْــتٍ نعْمــتِ النَــيم فــي شــبا الزّمهَريــرِ

ذاكَ إذ كَــنَّ والشّــبابُ جَميــعٌ فــي زمــانٍ كلمــعِ ثــوبِ البشــيرِ

يتحدث الشاعر عن الهَام : وهو الطير الذى نألفه فى المقابر، وما خرب من الديار، ثم، تحدث عن المَكْنسِ ،وهو مدخل الظبى إلى كُمسه، واليعفور، هو الظبى.

أراد الشاعر من ربطه الهجاء والسخرية بهذه الظواهر التأكيد على خراب بيت قيس عيلان، ثم استشهد فى القصيدة من القرآن الكريم "الزمهرير"، وبثوب البشير.

يقول تعالى: "مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا " [الإنسان – آية ١٣].

ويقول تعالى : "فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ " [يوسف – آية ٩٦].

اعتمد الشاعر أيضًا فى البيت الأول والأخير على التشبيه التمثيلى :الذى يؤكد وجود الدار ،وبروزها ،فهى كخط الزبور ،وظهوره فى هذا الزمان الذى يلمع فيه الشباب ، كثوب البشير .

عبر الانزياح الدلالى عن قوة السخرية والهجاء لدى الشاعر ،فوظف التشبيه والتضمين القرآنى، ليُمثلا شعوره وإحساسه ،ويزيدهما قوة فى ارتباطه بالشاهد الحّسى ،للأماكن ، كما هو واضح فى الأبيات السابقة.

---

١ ـ شعر الأخطل التغلبى . ص ٢٩٤.
٢ ـ شعر الأخطل التغلبى . ص ٤٧٧.
٣ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٥٤٧.

ويقول:[١] فى ذكره لصفات الله تعالى ، والتى جاءت فى القرآن الكريم :الطويل:-

فلمَّـــــا أغَرْنـــــا، أغـــــنم اللهُ مـــــنهُمُ وذو العَـرْشِ يُعطـي مـن جزيـلٍ ويمـنحُ

يقول تعالى: "ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ " [البروج – آية ١٥].

وقوله تعالى : "كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا " [الإسراء – آية ٢٠].

ينتهج الشاعر بصورةٍ واضحة الطاقات الدلالية للقرآن الكريم، وربطها بمواقفه وأغراضه، بطريقةٍ تتماشى مع ذاته، ورؤيته للعالم، والتقاليد السائدة فى العصر الأموى. فتناغم مع معانى القرآن الكريم فى ممارساته الشعريّة، القائمة علي تأسيس فكرة العلائقية والارتباط بالدين الإسلامى ،ودلالته الواضحة فى شعره، وفى تجانسها مع نفسه على الرغم من نصرانيته، وهجومه على بعض الفرائض الإسلامية ، فهو القائل:- [الوافر]

ولســـتُ بصـــائمٍ رمضـــانَ طوعـــاً ولَسْـــتُ بِآكِـــلٍ لحْـــمَ الأضـــاحي

مفارقة التنافر البسيط :من أنواع المفارقة الموقفية .

تظهر المفارقة عند الأخطل من خلال ما سبق أن حاولنا تقديمه، فى ظهورها متحكمة فى شعره، وفى قناعاته النفسية والفكرية، فتفاعل مع ثقافة عصره، ووحى القرآن الكريم فى حالةٍ من التحرر العقائدى عنده، والانفتاح على الدين الإسلامى. والجوانب الروحية فيه، والتى تسعى إلى تحقيق رؤية الأخطل، والانفتاح السياسى، والفكرى لديه، مع إقراره بالتعددية الثقافية للثقافة الإسلامية، والمسيحية.

فتشكلت مُفارقة التنافر ،وهى من أنواع المفارقة الموقفية،" تتحقق هذه المفارقة عندما يكون هناك تعارُض بين ما نتوقعه ،وبين ما يحدُث ،فيقدمها الشاعر ،معتمدًا على تجاوز التنافر الظاهر بين ظاهرتين ،الظاهر منهما التنافر ." [٢] .

حاول الأخطل أن يجمع بين بعض مظاهر العقيدة الإسلامية ،والعقيدة المسيحية فى صورة ،تبدو متقاربة ،دون أن يُظهر للمستمع الخلاف بين العقيدتين ،وقد يرجع ذلك إلى ذكاء الشاعر ،وقدرته على بعث الانسجام والتوافق فى مفارقة التنافر البسيط ،وما حملته من جمعٍ بين مظاهر عقائدية بين الإسلام والنصرانية .

على الرغم من استناده البارز إلى التضمينات والعلائقية بالقرآن الكريم فى خطابه الشعرى.

فتكررت التضمينات القرآنية فى مفارقاته ،وهذا التكرار له ما يُبرره عند الشاعر ؛لأنه ينطلق من التعاطى الموسُوم بالثقافة الإسلامية ،الثقافة التى تُسرُّ بها النفوس ،ويستشهد بها فى مواقف الحياة ،فصدر التكرار من وعى الشاعر بهذه الأبعاد ،وبمكونات الواقع .

فكان سبيله فى ذلك أن جمع بعض المتضادات المرتبطة بموضوعاته الشعرية ،والتى لا تُركز على معنى واحد ؛بل تجمع معانى متعددة .

المسيحية والإسلام وثقافة التعددية الدينية.

١ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٥٢٢.

٢ـ مبادىء النقد الأدبى .أ . ا رتشارد . ترجمة مصطفى بدوى . ،مراجعة : لويس عوض . ط: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ مصر .١٩٦٣م ص: ٣٢٢

وتأتى مفارقة التنافر البسيط ،مرتبطة بظاهرة تركيبية أخرى فى أسلوب الشاعر ،أشارت إلى التضاد بين الألفاظ : النصارى ،والمسلمين "،وقد لاحقت ظاهرة التضاد الشاعر منذ البدايات ،حينما تحدث عن الشباب والشيّب .

يقول الشاعر :[١] [البسيط].

إنّـــي وَرَبِّ النَصـــارى عِنـــدَ عيـــدِهِم وَالمُســـلِمينَ إذا مـــا ضَـــمَّها الجُمَـــعُ

وَرَبِّ كُـــلِّ حَبـــيسٍ فـــوقَ صَـــومَعَةٍ يُمســـي وَلا هَمَّـــهُ الـــدُنيا وَلا الطَمَـــعُ

ويقول أيضاً :[٢] [الخفيف].

إنَّ مـــن يـــدخُل الكنيســـةَ يومـــاً يلـــقَ فيهـــا جـــآذراً، وظبـــاءَ

مالـــت الـــنفسُ نحوهـــا، إذ رأتهـــا فهـــي ريـــحٌ وصـــار جِســـمي هبـــاءَ

ويقول أيضاً :[٣] [الطويل].

ومـــا ســـبح الـــرحمَّن فـــي كـــل بيعـــةٍ أبيـــل الأبيلـــين المســـيح بـــن مريمـــا

لفظ التسبيح من الألفاظ الشائعة بكثرة فى القرآن الكريم فى مفتتحات الكثير من السور. يقول تعالى : " سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى " [الأعلى – آية ١].

وقوله تعالى : " سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " [الحشر – آية ١].

جمعت الأبيات بين مسيحيته، أو الدين المسيحى، وعيسى بن مريم، دين العقيدة الإسلامية فى تسبيح الرحمن النصارى/المسلمين، إلا أن الأثر الإسلامى ظلَّ جلياً فى شعر الأخطل التغلبى، وأصبحت معانى القرآن الكريم، تناصاً واضحاً عند الشاعر شكلاً ومضموناً، مع المعانى القرآنية، وما تحمله من قيم أخلاقية، ومناهج تشريعية، قوامها "التسبيح، والأعمال الصالحة، والرحمن، والصلاة، وغيرها من الألفاظ الإسلامية، التى أشارت إلى عمق المفارقة و شعريتها عند الأخطل.

أومفارقة الكشف عن الذات .

تعتمد مفارقة الكشف عن الذات عند الأخطل فى مباشرة التعلق بالواقع السياسى ، وتكرار نبرة الارتباط به ،وما استقر فيه من قيم إسلامية ،بثها فى العديد من موضوعاته الشعرية ،فبدت مفارقة على مستوى الذات ،للكشف عن طموحاته ،لذلك لم يتوقف عن الارتباط بمرجعية القرآن الكريم فى شعره .

فواكب عصره من خلال الثقافة الإسلامية، والتضمين من القرآن الكريم.

فقد ذاع فى شعره، أنماطاً أخرى من العادات الإسلامية ،التى عُرفت فى الحياة بصفةٍ عامةٍ ، فتجلت ثقافة العصر الأموى فى اتباعه استراتيجيات العصر ،وما يحمله من ظواهر كبيرة، فظهرت فى شعره ألفاظ الخليفة ، أمير المؤمنين ،وغيرها من الهيئات السياسية الموجودة فى ذلك الوقت.

---

١ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٢٥٨.
٢ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٥١١.
٣ ـ شعر الأخطل التغلبى (سابق) ، ص ٥٧٩.

يقول الشاعر: [الطويل].

- إلَيــكَ أميــرَ المُــؤمِنينَ نَســيرُها تَخُـبُّ المَطايـا بِـالعَرانينِ مِـن بَكـرِ[١]

- إمــامُ النّــاسِ والخَلفَــاءُ مِــنْهُمْ وفِتْيــانٌ تسَــدُ بهــا الثغــورُ[٢]

- لأحَبِّــرن ، لابــن الخليفــةِ مدْحــةً ولأقــذفنَّ بهــا، إلــى الأمصــارِ[٣]

- أحــيا الإلــه لنَــا الإمــامَ فإنَــهُ خيــرُ البــريةَ للــذنوب غفــور[٤]

- بنــي أميّــةَ ، نَعْمــاكُمْ مُجَلّلَــةٌ تَمّــتْ فــلا مِنّــةٌ فيهــا ولا كَــدَرُ[٥]

ويقول:[٦] [الكامل].

لا يعجبنــك مــن خطيــب خطبَــة حَتّــى يكــون مَــعَ الْكَــلام أصــيلا

إن الْكَــلام لفــي الْفَــؤَاد وَإِنّمَــا جعــل اللّسَــان علــى الْفَــؤَاد دَلِــيلا

تطرح المفارقات السابقة التى تقوم على مميزات الانزياح الدلالى فى خروج الوصف عن نُعوته الحقيقية إلى نُعوتٍ دلالية ، كما يقول : وفتيان تُسد بها الثغور .

فالثغور هى الأماكن المتفرقة ،والتى منح من خلالها الأخطل للفتيان ،أو فرسان الدولة الأموية ،قوةً بارزة ،تُسد بها الأماكن ،وذلك دلالة على الكثرة والقوة ،لفتيان بنى أُمية ،فخرج المنعوت عن نعته ،إلى نعتٍ آخرٍ ،أقوى ،وأكثر إيحاءً .

اعتمد الأخطل هنا فى الانزياح التركيبى على التقديم والتأخير فى قوله : إليك أمير المؤمنين نسيّرها ،والأصل فى القياس النحوى : يا أمير المؤمنين نسيِّرها إليك .،لكنه أراد تقديم ما يُوحى بغرضه ،وما أكد عليه من خلال : التشبيه ،والكناية أيضًا ، وما يُشيرا إليه من صفات أمير المؤمنين :العطاء والكرم ،تزداد هذه الدلالات قوة فى اعتماده على المرجعية القرآنية ،كما جاء سابقاً.

وفى قوله :جُعل اللسان على الفؤادِ دليلا .الأصل فى القياس النحوى ، جُعل اللسان دليلاً على الفؤاد.

برزت أشكال تقديم الجار والمجرور فى النص الشعرى عند الأخطل :كأهم أنواع الانزياح التركيبى فى الجملة الشعرية عند الشاعر .

---

١ ـ شعر الأخطل التغلبى، (سابق) ، ٤٢
٢ ـ شعر الأخطل التغلبى، (سابق) ، ص٤٥
٣ ـ شعر الأخطل التغلبى، (سابق) ، ص٥٢٢
٤ ـ شعر الأخطل التغلبى، (سابق) ، ص ٥٢٣
٥ ـ شعر الأخطل التغلبى، (سابق) ، ص٤١١
٦ ـ شعر الأخطل التغلبى، (سابق) ، ص ٥٢٧.

مثلث الانزياحات الدلالية والتركيبية ،خاصية أسلوبية أسلوبية أساسية فى شعر الأخطل ،قامت على توظيف مجموعة من البنى التركيبية فى الجملة الشعرية ،أعطت الأسلوب دلالته التعبيرية ،وتوافقه الداخلى مع موضوع الشاعر ،وما يُحاول تأكيده من خلال التنوُّع فى الأداء الشعرى ، إلى جانب توظيف المرجعية القرآنية ، التى ارتبطت بفكرة العلائقية والارتباطية بالنص القرآنى فى خطاباته الشعرية، فأكدت على وجه العموم مفارقة الذات أو المفارقة الخفية ،،التى تُظهر عكس مايؤمن به الشاعر على المستوى العقائدى، وتوضح فى نفس الوقت ارتباطه الفكرى بالعقيدة الإسلامية: عقيدة أهل الحُكم والحلِّ والعقد ،فتظاهر الأخطل بحبه لها ،لينسجم مع عصره ،ومع طموحاته الذاتية ، وهذا هو جوهر المفارقة فى شعر الأخطل ،فى استجابته للواقع وتعايُشه معه، وتظاهره بالحميمية مع كل مكوناته ،وخاصة العقيدة الإسلامية .

جسدت المفارقة بأنواعها فى شعر الأخطل التغلبى ظاهرة أدب الأمر الواقع فى الشعر الأُموى ،والتضاد بين الهوية الذاتية ،وأدب الأمر الواقع ،أظهرت المفارقة الموقفية هذه السمة فى شعر الأخطل ،والذى اختاره البحث بصفةٍ خاصةٍ ،لأنه شاعرٌ نصرانى ، استطاع أن يُساير عصره وثقافته فى محاولته للتقرب من الخلفاء ،عن طريق الارتباط بالقرآن الكريم فى معظم أغراضه الشعرية .

فبدت مفارقته الموقفية :مصورة للأحداث والشخصيات فى حالة من الانسجام والترابط بها ، وهذا ما حاول البحث الوقوف عنده فى قراءة شعره ،ولغته المجازية فى الانزياح الدلالى للاستفهام المجازى ،والانزياح التركيبى لتقديم الجار والمجرور ،"فبنية النص الشعرى تأتى فى صورتين: الأولى : مادية، وهى التى تُشكل الأسلوب الشعرى، والثانية: دلالية، وهى حصيلة التفاعل بين البنى الظاهرة ودلالاتها العميقة"[١].

فحملت المفارقة الموقفية تلك البنى الخارجية عند الأخطل التغلبى فى صورتيها، التى يظهر منها تناقضات بين الجمل، وتوظيف للسياق القرآنى، فتحمل فى عُمقها ارتباطاً نفسياً وفكرياً عند الشاعر بالعصر الأُموى ، وذلك لأنها أظهرت فى أثوابها المتنوعة ، مُسايرة الشاعر لظروف العصر الأموى، وظاهرة أدب الواقع فى شعر الأخطل .

وبناء على هذا التأسيس الدلالى للمفارقة عند الأخطل ، جاءت كالآتى:

١- عبرت المفارقة فى شعر الأخطل عن وعيه بالمرحلة التاريخية والسياسية فى العصر الأموى، وصورة لأدب الواقع .

٢- ارتبط أُسلوبه بالسخرية ،وشكلها فى العصر الأُموى ،حيث انتشرت النزاعات السياسية ،وظهر فن الهجاء ،أو النقائض ،ليبرز فن السخرية ،متخذة طابعاً سياسيًا فى هجاء من يُناهض الخلافة الأموية ،لذلك تصدرت السخرية الانتقادية للشخصيات فى هذا العصر ،كما جاء عند الأخطل .

فجاءت السخرية ممزوجة بفن النقائض، وشكلت أهم معالم النقائض ،وساعدت فى تطوره ،لأنها حملت فى شعر الأخطل بعض ملامح النقد الاجتماعى من خلال الانتقادات لحياة اللهو والمجنون : الغانيات /الشيِّب / الشباب / فناء الدهر ،فتقاربت مع المتلقى لاعتماد الأخطل على المرجعية القرآنية ،وبعض الانزياحات الفنية التى ساعدته فى سخريته .

---

١ ـ نظرية التلقى (أصول وتطبيقات)، بشرى موسى صالح، ط. المركز الثقافى العربى بيروت ، الدار البيضاء، ٢٠٠١م، ص ٣٥.

٣- تعامل الأخطل مع الثقافة الإسلاميّة ، وخاصة القرآن الكريم، بصورةٍ أكثر ارتباطاً وانسجاماً معه.

٤ـ قصد الشاعر من توظيفه للقرآن الكريم، استدعاء الفكرة الدينية، وأثرها على المتلقى، لأنها ترتبط بفلسفة الأمور الحياتية، وخاصة فكرة الفناء، والدهر، والشباب، والشيِّب، والخلود، وغيرها من الأفكار التى وثقها بمعانى القرآن الكريم، فوظفها كفكرةٍ قيَّمية ، يُشير من خلالها إلى قيمٍ أخلاقية.

٥ـ ارتبط النص الشعرى عنده بالفكرة الدينية، وبالأثر القرآنى الواضح جداً فى شعره، فقد تمدنا هذه الدلالات إلى معنى "إسلامية النص الشعرى عند الأخطل".

٦ـ ظهرت الأسلوبية الانزياحية فى شعر الأخطل من خلال : الانزياح الدلالى ،والانزياح التركيبى ،وكان الانزياح الدلالى أقرب الصور الإيحائية إلى موضوعات المدح والفخر والهجاء ،فى الاستفهام المجازى أبرز صور الانزياح الدلالى فى شعر الأخطل ،لأنه تعلق بمعظم موضوعاته الشعرية ،فأمدّه بدلالات التأكيد ،والتهكم والسخرية ،ودلالات التمنى والاسترشاد ،والتى تعلقت جميعها بالمرجعية القرآنية فى الخطاب الشعرى عنده .

٧- تصدرت ظاهرة الانزياح بنوعيها علاقات الحدث اللغوى عند الشاعر ،ليُضفى على أسلوبه جمالية وإيحائية ،وفى هذا المجال توقف البحث باختصار عند الانزياح الدلالى ،أو الاستبدالى ،الذى يندرج ضمن الصور المجازية والبيانية : الاستفهام المجازى ،والتشبيه ،والاستعارة ،ودورهم فى خلق حالات الشعرّية ،لأن الشعرية ماهى إلا لغة خاصة ،تخرج عن السياق الدلالى المعروف فى النص الأدبى إلى سياقٍ أكثر إيحائية ودلالية ،وهذا لا يحدُث ،إلا من خلال التوظيفات الأسلوبية المتنوعة ،لتحقيق شعريّة النص الأدبى ،فما الشعرّية إلا انزياح مرجعيات اللغة ،وقوانينها إلى لغة مجازيةٍ ، أكثر قدرة على تحقيق الدلالة الشعرية .

٨ـ فتتكون الانزياحات فى مِعيارية مختلفة للغة وللأُسلوب ،فتُلقى الانزياحات أدوارها من خلال براعة الشاعر ،أو الأديب فى التحكّم فى خصائص اللغة ،ومكوِّناتها :" إن النص الأدبى وحدة تتآزر جميع عناصرها لأداء غرضٍ واحدٍ ،والمخصوص بالذكر فى هذا القول ،هو تلك العناصر التى تخدُم النص ،فالانزياح من بين تلك العناصر التى تخدم أدبيات النص مع العناصر الأخرى ."[1].

٩- يُعد الانزياح أداة من أدوات التحليل الأُسلوبى فى النص الشعرى عند الأخطل ،لأنه أمدّ المفارقة بسماتها الدلالية من خلال الكشف عن علاقاتٍ لغوية جديدة فى التعبير ،تقع فى علاقة اصطدام مع ما يتوافق معه الذوق ، وما تأسست عليه المعرفة الإنسانية الأولية ، ومساءلة هذا التشكيل الجديد والغريب ،الذى تعكسه ظاهرة الانحراف ،يُشر كل هذا إلى التوتر المستمر بين المتحدِث والمُتلقى ،فتتأسس الشعريَّة ،التى هى هدف كل عملٍ أدبىٍ ،وهى توقع من خلال دلالاتها الكامنة فى نفس المُتلقى [2].

١٠ـ ويمكننا عمل نموذج إحصائىٍ للانزياحية الأسلوبية ،ودلالتها ،فى بعض أجزاءٍ مما قدمه البحث من نماذج شعرية عند الأخطل التغلبى ،ليست جميعها حتى نتلاشى الإطالة، نبتغى من خلالها تقديم بعض حالات الانزياح فى شعر الأخطل عن طريق الإحصاء لبعض الظواهر الفنية ،وإن كُنا نريد عمل معجمًا دلاليًا عن ألفاظ القرآن الكريم الواردة فى شعر الأخطل

١ ـ مدخل إلى علم الأسلوب . شكرى محمد عيّاد .ط: مكتبة زهراء الشرق الثانية ١٩٩٦م م .ص: ٨٧
٢ ـ الأسلوبية وتحليل الخطاب .مُنذر عياشى . ط: دار الإنماء الحضارى ـ سوريا الأولى ١٩٨٩م .ص:٧٧

،والألفاظ المرتبطة بهيئة الدولة ،وأسماءُ الخلفاء ،الذين جاءوا بأسمائهم ،وبكنياتهم ،والأماكن التى وردت فى شعره ،ومعجم للتنافر البسيط بين الألفاظ الإسلامية الخاصة بالأماكن : كالمسجد ،والألفاظ النصرانية : مثل الكنيسة ،والشعائر الخاصة بهما .

١١ـ لم يترك شعر الأخطل التغلبى أى ظاهرة فى عصر الدولة الأُموية ؛إلا وذكرها نصًا ،أو تضمينًا ،تأكيداً على انتهاج بعض الشعراء فى عصر الدولة الأُموية :" أدب الأمر الواقع " .وكان أبرزهم النصرانىّ "الأخطل التغلبى" .الذى استطاع أن يتوافق ويتناغم مع ثقافة عصره فى كل مكوناته ،ليؤكد على شعريته ،وتوافقه الفكرى مع عصره ،والتى بدت ظاهرة فى شعره لونًا دلاليًا متميِّزًا فى الأداء الشعرىّ، والأداة الفنية التى تلاقت مع فكره ونفسه ،وقدمت رؤيته للأحداث والشخصيات فى ظلِّ رؤيته الساخرة أحيانًا من الدهر وعواقبه على الإنسان ،أو من الدَّهر وما تركه فيه من صبرٍ وقوةٍ على مرِّ الزمان ،ومن خلال هذه المتناقضات برزت أدوار المفارقة على مستوى الموقف الشعرى والأداء الأسلوبى عند الشاعر ،وما أجاد به من إفرازاتٍ فنيةٍ ،جاء تميّزها من خلال خروجها ،أو انزياحها عن مرجعيتها القياسية إلى معانى دلالية تتوافق معه وتنسجم مع رؤية .

ومن بعض مظاهر الخرج عن المرجعية القياسية فى مفارقة الأخطل ،هذا الجدول الإحصائى ، لأبرز ظواهر المفارقة فى شعر الأخطل التغلبى ، وهى مفارقة الاستفهام المجازى ، ودلالته المتنوعة فى السياق.

الانزياح الدلالـــــــــــــــى .	نـــــــوعه	غرضـــــــــــــه الدلالـــــــــى
١ــ سَـعَيْتَ شَـبابَ الـدَّهْرِ، لـمْ تسـتطِعْهُمُ أفألآن ،لمَّا أصبحَ الدهرُ فَافِياً؟ أمْ هل دواءٌ يرُدُّ الشيبَ موجودُ؟	استفهام مجازى استفهام مجازى	التمنى والتحسُّر
٢ـ هل تبلغني يزيداً ذاتُ معجمة كأنَّها صخرةٌ صمَّاء صيخود ؟ والسائلونَ بظهرِ الغيبِ ما الخبُر؟	استفهام مجازى استفهام مجازى	التأكيد السخرية
٣ــ قـومٌ تناهـتْ اليهم كلُّ فاحشة ٤ـ الآكلونَ خبيثَ الـــزَّادِ، وحـــدَهُمُ	استفهام مجازى استفهام مجازى	السخريةوالاسترشاد التأكيد
٥ــ شَـربنا فمتنـا مِيتـــةً جاهليـــةً مضى أهلُها لَمْ يَعْرِفوا ما مُحمَّدُ؟	تشبيه	التأكيد والإيضاح التأكيد
٦ـ أعَزّ لا يَحْسبُ الـــدُّنْيا تُخَلِّـــدُهُ ولايقولُ لشيءٍ فاتَ: ما فَعَلا؟	تشبيه استعارة	السخرية ،والفخر الاستمرارية
٧ـ هَلْ عَرَفْتَ الدّيارَ يابنَ أُوَيْسٍ دارِســـا نُؤيُهـــا كخَـــطّ الزَّبورِ؟	كناية	التأكيد القوة
٨ـ ذُخراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ ٩ـ كلمعِ ثوبِ البشيرِ.		التأكيد
٨ـ فَنَحنُ أخٌ ،لـم يُلْـقَ فـى النّـاسِ مِثلُنـا أخًا ،حينَ شَابَ الدَّهرُ ،وابيضَّ حَاجِبُه ٩ـ ولقَدْ لبِسْتُ لهذا الدَّهْرِ أعْصُرَهُ حتى تجللَ رأسي الشيبُ واشتعلا.		القوة

خاتمة البحث ونتائجه

استطاع الأخطل التغلبى، أحد الشعراء الفحول، من الطبقة الأولى فى الشعراء الإسلاميين، كما صنفه ابن سلام الجمحى :" من الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين.[١]

قدم الأخطل نموذجاً متميزاً لشعرية المفارقة فى نماذجه الشعرية، والتى حملت توافقاً زمكانياً وحضارياً وثقافياً، للعصر الإسلامى، فى عهد الدولة الأموية.

وهو مايدُل عل تلازم الشاعر ،أو المُبدع مع بيئته فى نصه الأدبى ،أو أدب الأمر الواقع.

وقد ظهر الأخطل بشعره وبموضوعاته الشعرية فى الفخر والهجاء، والمدح، وحتى فى الغزل مرتبطاً ببيئته فى خطابه الشعرىّ ،ومجسداً لثقافة عصره، وأحواله السيلسية، وخاصة الارتباط الواضح بالثقافة الإسلامية، وسطوع الأثر الدينى للعقيدة الإسلامية فى شعره، بصورةٍ كبيرةٍ جداً، على الرغم من أنه شاعر نصرانىّ؛ إلا أنه استطاع أن يتناغم مع معانى القرآن الكريم، وأن يتناصَ معه، وأن يوظفه فى كثيرٍ من الأحيان مرتبطاً بأسلوبه الساخر ،أو السخرية النقدية : للشخصيات .

كذلك استمد شعره من الأحوال العامة فى المجتمع الأُموى، للنظم والألقاب التى وظفها فى شعره أيضاً، فأدخل فى شعره معانى الأنفة ،والمروءة لأهل بيت الخلافة الأموية ،كما جسد على النقيض حالات التهكم والسخرية لمن يهجوهم .

ظهر فى شعره الأثر الإسلامى واضحًا فى صورٍ متعددة ،حملت توظيفاً إسلامياً بارزاً، يتعمق فى معانى القرآن وينسج من خلالها "مفهوم العلائقية" بين ما يذهب إليه فى رؤيته للحياة وتناقضاتها، وبين فخره ومدحه للخلفاء أيضًا.

ـ ارتبطت موضوعاته الشعرية بالقرآن الكريم، ليخلق الرابط، أو العلائقية، التى تساعدنا فى تجسيد مفهوم الشعرية ":إن العلائقية أو الارتباط بين الأشياء" خاصة فى لغة الشعر، يمكن أن تُجسد لطاقات الشعرية، وطاقاتها الإيحائية، وخاصة فى لغة الشعر.[٢]

وفى طريق التعمق فى قراءةِ شعرهِ، توصل البحث إلى هذا الرابط، أو مفهوم "العلائقية" بين القرآن الكريم، ومتناقضات الحياة، ومدى وعى الشاعر بدلالات هذه الروابط التى تجمع بين توظيف معانى القرآن الكريم مع بعض موضوعاته الشعرية، وخاصة فى الغزل، والمدح والهجاء.

فجاءت المفارقة أو شعرية المفارقة من خلال هذه "العلائقية" بين الشاعر وعصره، وثقافته، ووعيه الداخلى ، مُتجسدة فى المفارقة الموقفية للأحداث والشخصيات ،والتى برزت كأهم أنواع المفارقات فى شعره ،لأنها صورت إخلاصه للخلافة الأموية ،فصور أمجادها ،وشخصياتها فى مفارقته الموقفية ،والتى غذّتها مجموعة من التوظيفات الأسلوبية فى تعبيره الشعرىّ، فكان الانــزياح بعلاقته المتنوعة فى خطابه الشعرى.

- تجسدت الأُسلوبية الانزياحية فى : الانزياح الدلالى لأُسلوب الاستفهام ،أو مفارقة الاستفهام المجازى (أبرز أدوات تشكيل الانزياح الدلالى فى شعر الأخطل ،فقد تداخلت فيه المفارقات اللاشخصية ،أو الموضوعية ،التى تناولت المفارقة الموقفية ،و قضايا ها ،ومن دلالات المفارقة الموقفية :-

١ ـ ابن سلام الجمحى. (محمد بن سلام ت ٢٣١ هـ) . طبقات فحول الشعراء، تحقيق : محمود محمد شاكر . الجزء الثانى، ط. دار المدنى ، جدة .١١ ٢

٢ ـ فن الشعرية. كمال أبو ديب، ط. مؤسسة الأبحاث العربية الأولى ١٩٨٠م، ص ٣٨.

- قدمت المفارقة الموقفية فى شعر الأخطل ،الأحداث وأبرز الشخصيات ،الذين جاءوا من بيت الخلافة الأموية ،ودورهم فى الغزوات والفتوح ،مدحهم الشاعر ،معتمداً على التضمين القرآنى ،وهذا مايؤكده البحث فى جوهر معنى المفارقة عنده ،فى مفارقة الذات وعقيدتها فى الاعتماد على القرآن الكريم ،وهو نصرانىٍّ، مسايرةً للأحداث .
- حملت المفارقة الموقفية دلالات السخرية والتهكم من الشيِّب ،وما يُحدثه فى الإنسان ،متأملاً فى تجاربه الذاتية ،وتجارب الآخرين ،فجاء بالمتضادات :الشباب /الشيِّب ،الحياة / الموت .
- فبُنيت المفارقة الموقفية فى نوعيها : اللاشخصية ،ومفارقة التنافر البسيط على الربط بين مفارقات الحياة وتناقضاتها (الشيب / الشباب / الموت / الحياة ... وغيرها، وظف الشاعر هذه الدلالات فى استخدام متميّزٍ لأنواع الانزياح الدلالى والتركيبى ،فبرز الاستفهام المجازى، أهم أنواع الانزياح الدلالى :

لأنه خرج من دلالة السؤال إلى أغراضٍ دلاليةٍ متنوعة :كالتوكيد، والتعظيم، والاسترشاد، والتى استرشد فيها بالقرآن الكريم،وما حمله من ثوابت حياتية ،فيتعجب

- الشاعر ممن يعتقدون فى الخلود فى مفارقاته الساخرة والمتهكمة ،معتمدًا على الجمع بين المتضادات ،التى لم تكُن مُجرد أشياء عابرة ،بل ثوابت أساسية فى حياة الإنسان ،ابتكر منها الأخطل مواقفة فى المفارقة . فتجسدت شعرية المفارقة على التوتر والتضاد بين المعنى الظاهرى، والداخلى، من أجل استحضار التناقضات والدوافع، لتحقيق الغاية – كما جاء فى معظم أشعاره، التى عبر فيها عن الحياة/ والموت ، شباب الدهر/ الدهر فانياً ، الشيِّب / الشباب. بَنى بيتاً / ولم يجعل لك بيتاً .
- فاتضحت فلسفة الأخطل، ونظرته للحياة، وجوهرها، ولم يكن هذا الحسّ الشعرى غائباً عند الشعراء الجاهليين، فهل تأثر أيضاً بالتراث الشعرى فى العصر الجاهلى؟، لتحمل شعرية المفارقة انسجاماً بين ثقافة الماضى والحاضر وتراث أدب العصر الجاهلى، وثقافة العصر والأموى.
- فقد حرص بعض الشعراء فى العصر الجاهلى على الجمع بين الحياة والموت ، وتكرار دلالات فناء الدهر، "إن الشاهر الجاهلى متشائم فى الغالب، لا يبدى رأيه فى الحياة، إلا حين يدفعه إلى ذلك ما يصادفه فى ألمٍ وحزنٍ".[١]

يقول عروة بن الورد: [الطويل].

تخوفني ريب المنون وقد مضى لنا سلَفٌ قيسٌ، معاً، وربيعُ[٢]

ويقول أيضاً فى ذلك: [الطويل].

وَلَكِنّهـا ، وَالـدَهرُ يَـومٌ وَلَيلَـةٌ بِـلادٌ بِهـا الأجنـاءُ وَالمُتَصَـيَّدُ[٣]

تأثرت شعرية المفارقة بهذه الرؤى المتداخلة فى شعر الأخطل التغلبى، فأكدت على العلائقية والترابطية بين عصره، وثقافته التى تشربت من التراث الجاهلى، والإسلامى، فتأسست شعرية المفارقة على هذا الوعى الثقافى، الذى تماشى مع منظورات الشاعر للحياة، والتى أسسها على القرآن الكريم فى مفارقته المجازية ، فى الاستفهام المجازى، وتساؤله عن الدهر، والمنون ، والشيِّب ، والفناء، من وجهة النظر الإسلامية، والتى

---

١ ـ مصطفى عبد اللطيف. الحياة والموت فى الشعر الجاهلى، ط. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م. ص ٣٦.

٢ ـ ديوان عروة بن الورد. دراسة وشرح وتحقيق : أسماء أبو بكر، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٠٣.

٣ ـ المرجع السابق، ص ١٠٤.

تفاعلت مع القرآن الكريم بصورةٍ كبيرةٍ جداً، مما جعل النص الشعرى، يحمل إلى جانب أدبياته وخصائصه الفنية، وجهة النظر الدينية للإنسان والحياة، من خلال الخلفية العقائدية للدين الإسلامى ، فقد تحدث نجيب الكيلانى على "إسلامية النص الأدبى" ، فى تناول النص الشعرى على سبيل المثال للقضايا الحياتية من من خلفية عقائدية، فيظهر فى النص الشعرى أثر كل ما هو إسلامى على الحياة الفكرية عند الشاعر.(١)

ـ تميّز النص الشعرى عند الأخطل على المستوى العام للمفارقة ،وعناصرها الأُسلوبية للانزياح بنوعيه بإسلامية النص الشعرىِّ، فقد أشارت إسلامية النص الشعرى عند الأخطل إلى الأثر الدلالى الذى يخلقه النص القرآنى على المتلقى، وهو بذلك يتفق مع معاصريه، ومن سبقوه فى الأثر القرآنى على المتلقى، والارتباط بخصوصية القرآن، فقد كان القدماء، يحرصون على الاستمتاع بأسلوب القرآن الكريم، وألفاظه، لأنه يختلف عن كلام البشر، فكانوا يحرصون على متابعته، والتعرُّف على أسراره البلاغية، فهو فى نظرهم النص المُعجِزْ ، فكانوا يقاربون بينه وبين نصوصهم، لأنه نزل بلغتهم، فحمل الفنيات الخاصة، والإيجاز، والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء أو الإعراض.(٢)

- وقد حرص الأخطل على إبراز دلالاته من الاعتماد على القرآن الكريم ومفارقاته الإيحائية. "، وتسمى القيَّم الارتباطية أيضا اللفظية أو التصويرية ،أو الأدبية ،أو الرمزية ،أو قيَّم المضمون ،وهى تُضفى على الموضوعات معانيها الجمالية ،فتُصبح مرتبطة بالموضوعات ،لأنها تُذكِّر الشاهد أو السامع بأشياءٍ ،وحوداثٍ موجودة ،يكون لها قدرة فى التأثير على السامع .(٣)،

إن أهم عناصر المفارقة فى شعر الأخطل التغلبى ،هو تضمينه من القرآن الكريم ،ثم جمعه ببين الرموز الدينية الإسلامية والمسيحية : المسجد / والكنيسة، أو الإسلام / النصرانية، فظهرت هذه الألفاظ فى شعره موضحة صورة المفارقة الموقفية عند الأخطل التغلبى ،الذى أوحى للمتلقى من خلالها ،بمفارقة على مستوى الذات ،فعقيدته، نصرانية؛إلا أنَّ هُويته فى شعره تبدو إسلامية، وهنا تكون المفارقة الأسلسية فى شعره على كل مستويات المفارقة الموقفية ،مفارقة على مستوى الذات، مُفارقة خفية تُساير الموقف والأحداث، أبداها الشاعر ليتوافق مع واقعه بكل مكوناته .

فجاءت شعرية المفارقة فى شعر الأخطل ،لتقدم انعكاسات الواقع على الشاعر عن طريق الانسجام والتوافق معه ،وعن طريق توظيف الكلمة الحاملة للشحنات الدلالية القوية،أو القيَّم الارتباطية .

أشارت شعريَّة المفارقة بأدواتها ، وصورها إلى دورها الكُلى فى إطار كُلية النص الشعرى عند الأخطل، و أشارت إلى حالات الانسجام والترابط مع الثقافة الإسلامية، وخاصة أنه شاعر نصرانىٍّ، وإلى *أدب الأمر الواقع* ،الذى يُصور الأحداث والشخصيات ،بصورةٍ فيها من التركيز ،والتكرار المُتعمَّد من الشاعر /وخاصة ارتباطه بالقرآن الكريم .
فقدم هذا النموذج الشعرىّ ،صورة لأدب الواقع فى العصر الأموى ،وما حمله من تنظيرٍ تاريخى ،وسياسى ،كشف عن محاولات الشاعر فى التقرُّب من الخلفاء ،بكل الطُرق المُتاحة لدية .

---

١ ـ نجيب الكيلانى. الإسلامية والمذاهب الأدبية ن ط. مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، ١٩٨١م ، ص ٤٦.
٢ ـ تأويل مشكل القرآن الكريم. ابن قتيبة، تحقيق : أحمد صقر، ط. الثانية ، دار التراث ، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٧٨.
٣ ـ الفلسفة أنواعها ومشكلاتها . هنتر ميد .ترجمة فؤاد زكريا .ط:مكتبة مصر سعيد جودة السحار وشركاه .دار مصر للطباعة .ص:١٨

قامتلك خطابه الشعرى هذه الرؤية الواضحة ،لما يُسمى أدب الأمر الواقع ،وامتلك هُوية أُسلوبية خاصية ،تعمد على الاعتماد على المرجعية الإسلامية ،وعلى أسلوب التهكم والسخرية من بعض الشخصيات التى تُناهض الخلافة الأموية ،والسخرية من الدهر وتقلباته ،فجاءت المفارقة فى مثل هذه المواضع ،جزء من الانزياح على المستوى الدلالى ،أو الاستبدالى ،لأنها ارتبطت بانحراف الشاعر عن اللغة الشائعة ، إلى لغةٍ أكثر شعريَّة ،وأكثر قدرة على إبراز فكره ،لذلك اعتمد الشاعر على التعبيرات المجازية ،التى ساعدته على الانسجام مع نفسه ،وعصره ،ثقافته.

ـ برزت انزياحية المفارقة فى شعر الأخطل التغلبى مقترنة بحركة الواقع فى العصر الأموى من خلال خروجه عن التقليد إلى نمطٍ أسلوبىّ ،اتصف بعدُول الشاعر عن الكلام المألوف إلى الكلام المؤثر فى نفس المتلقى .

"ملخص البحث "

يُعدّ الأخطل التغلبى من أبرز شعراء العصر الإسلامى ، تنوعاً فى الأغراض الشعرية، وخاصة الهجاء، وارتباطه بشعر النقائض مع جرير، والفرزدق، لذلك كان الهجاء السياسى من أهم الموضوعات الشعرية فى العصر الأموى.

عكس الهجاء السياسى، وأسلوبه الساخر واقع الحياة السياسية فى العصر الأموى، وكان مصدر استجداء من بعض الشعراء، لعل الأخطل كان منهم، ممن طلبوا التقرب من الخلفاء.

فذهب فى شعره إلى الهجاء، وكان من أهم المؤسسين لتطور فن النقائض عن طريق ارتباطه بالسخرية ،ونقد بعض العادات الاجتماعية .وجاء مدحه، فى خلفاء بنى أمية، قوياً ،متناغماً مع واقعه ،حتى أصبح شاعر الدولة الأموية فى عصر عبد الملك بن مروان، فاحتوى شعره هذه الموضوعات الشعرية، التى ارتبطت بظاهرة متفرّدة، فى شعره، نهض عليها بصورةٍ كبيرة، وهى التناص القرآنى، والسمات الدينية البارزة للإسلام على الرغم من نصرانيته.

استطاع الأخطل أن يُوظف معانى القرآن الكريم، والكثير من ألوان العبادات، بطريقة تُظهر تشربه وتعمقه الشديد فى الثقافة الإسلامية.

فكيف لشاعرٍ نصرانى أن يستوعب هذه الأمور، بطريقةٍ واعيةٍ ،تربُط بين الموقف الشعرى، والمعنى القرآنى. ومن هنا تظهر سمات المفارقة على مستوى التوظيف والربط بين القرآن الكريم ،ومواقف الحياة، وعلى مستوى الذات ودلالاتها النفسية والفكرية لشاعرٍ نصرانىٍّ.

ومن خلال إبراز "المفارقة" وأدواتها، وصورها، وعلاقات الانزياح الدلالى ، والتركيبى يتوقف البحث عندها، لمتابعة دورها الكلى فى بناء الموقف العام فى القصيدة الشعرية عند الأخطل.

أولاً :المصادر.

١- شعر الأخطل التغلبى وأبى مالك غيثان بن غوث التغلبى، صنعة السُكرى روايته عن أبى جعفر محمد بن حبيب، تحقيق : فخر الدين قباوة، ط. دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٦م.

ثانياً : المراجع العربية

٢ـ ابن سلام الجمحى. (محمد بن سلام ت ٢٣١ ﻫ) . طبقات فحول الشعراء، تحقيق : محمود محمد شاكر . الجزء الثانى، ط. دار المدنى ، جدة.
٣ـ ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٢٩هـ ١٠٠٤م). مقاييس اللغة .تحقيق عبد السلام هارون .ط:اتحاد الكتّاب العرب ٢٠٠٢م .
٤ـ ابن قتيبة (أبومُحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت.٢٨٦هـ). تأويل مشكل القرآن الكريم. تحقيق : أحمد صقر، ط. الثانية ، دار التراث ، القاهرة، ١٩٧٣م.
٥ـ أحمد بن فارس .الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، قام بتصحيحه ونشره المكتبة السلفية ، ط. المؤيد ، القاهرةن ١٣٢٨ ﻫ ، ١٩١٠م.
٦ـ أحمد عادل عبد المولى .بناء المفارقة "دراسة نظرية تطبيقية أدب ابن زيدون نموذجًا " .ط: مكتبة الآداب القاهرة ٢٠٠٩م .
٦ـ أسماء أبو بكر. ديوان عروة بن الورد، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر ، ط. الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٢ م.
٧ـ إبراهيم عبد القادر المازنى .الشعر غاياته ووسائطه .ط النلشر للترجمة والنشر القاهرة (د.ت)
٨- إسماعيل شكرى . نقد مفهوم الانزياح .مجلة فكر ونقد
٩ـ الأب لويس شيخو اليسوعى. شعراء النصرانية (القسم الثانى) شعراء الدولة الأموية ، ط. دار المشرق، بيروت ، ١٩٦٨م.العدد ٢٣ نوفمبر ١٩٩٩م
١٠ـ بشرى موسى صالح. نظرية التلقى (أصول وتطبيقات) ، ط. المركز الثقافى العربى، بيروت، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.
١١ـ أدونيس. الشعرية العربية.. دار الآداب، بيروت، ط. الثانية ، ١٩٨٩م.
١٢ـ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ٣٦٠هـ ـ ٧١١هـ) لسان العرب .ط: دار صادر بيروت .
١٣ـ بطرس البستانى. أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام، ، ط. السادسة، بيروت.
١٤ـ حسن عبد الجليل يوسف. المفارقة فى شعر عدّى بن زيد ، ط. الدار الثقافية للنشر الأولى ، مصر ، ١٤٢١ ﻫ ـ ٢٠٠١ م.
١٥ـ حسن عبد الجليل يوسف. أساليب الاستفهام فى الشعر الجاهلى: التركيب والموقف والدلالة (دراسة نحوية وبلاغية للاستفهام فى ضوء الموقف الشعرى)، ط. دار الثقافة النشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).
١٦ـ حسن ناظم . مفاهيم شعرية "دراسة مقارنة فى الأُصول والمنهج والمفاهيم .ط: الثالثة المركز الثقافى العربى - بيروت .١٩٩٤م.
١٧ـ سيزا قاسم. المفارقة فى النص العربى المعاصر. مجلة فصول، العدد الثانى ، يناير – مارس، المجلد الثانى، ١٩٨٢م.
١٨ـ شكرى محمد عيَّاد .مدخل إلى علم الأسلوب ..ط: مكتبة زهراء الشرق الثانية ١٩٩٦م .

١٩ـ شوقى ضيف. تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى)، ط. الثامنة، دار المعارف، ١٩٦٣م.
٢٠ـ شوقى ضيف. التطور والتجديد فى الشعر الأُموى، دار المعارف، ط. الحادية عشرة، ٢٠٠٧م .
٢١ـ صلاح فضل .علم الأُسلوب مبادئه وإجراءاته . ط:دار الشرق اللقاهرة١٩٩٨م .
٢٢ـ المرزوقى (أبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى)، شرح ديوان الحماسة ، ط. دار الجبل الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٢٣ـ عبد القادر القط. فى الشعر الإسلامى والأُموى، ط. دار المعارف، (د. ت).
٢٥ـ عبد الله الغذامى .الخطيئة والتفكير من النبوية إلى التشريحية). ط. الأولى ، النادى الأدبى الثقافى ، جدة، ١٩٨٥م.
٢٦ـ عبد الكريم محمود يوسف. أسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم وأغراضه، ط. مطبعة الشام، دمشق (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).
٢٧ـ عبد السلام المُسدى .الأُسلوب الأُسلوبية .ط: الثالثة الدار العربية للكتاب .
٢٨ـ قحطان رشيد التميمى .اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى .ط: دار المسيرة ـ بيروت
٢٩ـ كمال أبو ديب. فن الشعرية، ط. مؤسسة الأبحاث العربية الأولى ١٩٧٨م.
٣٠ـ كمال اليازجى . الأساليب الأدبية فى النثر العربى القديم من عصر علىٍّ بن أبى طالب إلى عصر ابن خُلدون . ط: الأولى دار الجبل ـ لبنان ١٩٨٦م
٣١ـ مسعد الهوارى. قاموس قواعد البلاغة، ط. مكتبة الإيمان ، المنصورة، ١٩٩٥.
٣٢ـ مصطفى عبد اللطيف. الحياة والموت فى الشعر الجاهلى، ط. دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٧٧م.
٣٣ـ محمد غنيمى هلال. ليلى والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى (دراسات نقدية ومقارنة فى الحب العذرى)، ط. الأنجلو المصرية ١٩٥٤.
٣٤ـ محمد عبد المُطلب .البلاغة والأُسلوبية .ط:الأُلى مكتبة لبنان القاهرة .١٩٩٤م.
٣٥ـ محمد ويس .الانزياح من خلال الدراسات الأُسلوبية . ط: المؤسسة الجامعية للدراسات . ٢٠٠٥م .
٣٦ـ مُنذر عيَّاشى ..الأسلوبية وتحليل الخطاب. ط: دار الإنماء الحضارى ـ سوريا الأولى ١٩٨٩م .
٣٧ـ نجيب الكيلانى. الإسلامية والمذاهب الأدبية. ط. مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، ١٩٨١م.
٣٨ـ مدخل إلى مَناهج النقد الأدبى . تأليف :مجموعة من الكُتاب .ترجمة : د .رضوان ظاظا ،مراجعة : د.المنصف الشنوفى .ط: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

ثالثاً : المراجع المترجمة:

٣٩ـ أ . ا رتشارد . مبادئ النقد الأدبى . ترجمة مصطفى بدوى . ،مراجعة : لويس عوض . ط: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ مصر .١٩٦٣م.
٤٠ـ جون كوهن .بنية اللغة الشعرية .ترجمة :محمد الولىِّ العمرى . ط: الأُولى دار توبقال المغرب .١٩٨٦م .
٤١ ـ خوسيه ماريوثويلويلو إيفانكوس. نظرية اللغة الأدبية. ترجمة : حامد أبو أحمد، ط. سلسلة الدراسات النقدية ، العدد ٢ ، مكتبة غريب ، القاهرة ، الأولى، ١٩٩٢.
٤٢ـ ميخائيل باختين. ، ترجمة : جميل ناصيف التكريتى، ط. الدرار البيضاء- توبقال شعرية دوستويفسكى ١٩٨٨.
٤٣ـ هنتر ميد . الفلسفة أنواعها ومشكلاتها .ترجمة فؤاد زكريا .ط: مكتبة مصر سعيد جودة السحار وشركاه .دار مصر للطباعة .